

مقالات مختارة

إذا كنا في الصفحات السابقة قمنا بدراسة نقدية في أدب المازني ، تضمنت تلك الدراسة تحليلاً لبعض قصصه ، فإن تلك الدراسة لا تكتمل لمعرفة أدب المازني معرفة كاملة بدون أن نخرج للإطلال على بعض مقالاته ، لأن المقالة احتلت مساحة واسعة من نتاجه الأدبي ، وربما بعد أن كتب الشعر والرواية والقصة رأيت أن المقالة هي الشكل الأنسب لطبيعة شخصيته أو المرحلة التي يمر بها من ناحية وأنها الأبرز لما تميز به مصر من تغيرات وتبدلات من ناحية أخرى . فعكف زمناً يكتب المقال في أغلب الصحف والمجلات التي تصدر في القاهرة . " إن مقالات المازني في الصحف لأكثر من أن تحصى .. وإن أي إحصاء لها سوف يغفل عن جانب كبير منها .. لقد بلغ مجموع ما إحصاه كتاب أعلام الأدب المعاصر في مصر : إبراهيم عبد القادر المازني ، الذي أعده الأستاذان حمدي السكوت - ومارسدن جونز - من مقالات نشرت للمازني في مختلف الصحف والمجلات (٢٠١٢) مقالا .. وذلك إضافة إلى كتبه وأحاديثه " (١١) .

أظن أن هذا العدد من المقالات يعكس صورة واضحة لأدب المازني ، بل أن أدب المازني بخصائصه وسماته المميزة لم يتبدى ويتجلى كما ظهر في تلك المقالات وربما أن الشعر والقصة التي عالجهما المازني لم تكشف عن عبقريته كما كشفت المقالات ، وأظن أن قراء العربية لم يعرفوا المازني تلك المعرفة الوثيقة إلا من خلال تلك المقالات ، فهي التي أذاعت صيته ، ووضعت في مكانه من كتاب العصر الحديث . وكان صاحب فضل على الصحافة أو على المقال الصحفي ، كما كانت الصحافة صاحبة فضل عليه ، فتبادل الاثنان الفضل " ولا شك أن الصحافة كان لها

١ - المازني ساخر العصر الحديث - د . أحمد السيد عوضين - (١٠٠) .

نأثيرها - ليس على أسلوب المازني - وإنما في اختياره لمفرداته اللغوية التي يستعملها للتعبير عن أفكاره وآرائه.. نعم.. فقد غيرته الصحافة ، أو غير هو من أسلوبه لينلامر مع وسيلة النشر - صحفاً ومجلات - لا تقتصر قراءها على الخاصة ، وإنما تصل إلى مختلف الأوساط ، ولابد لمن يريد أن يصل خطابه إلى جميع القراء أن يختار العبارة الميسرة والألفاظ الشائعة ، وينحاش كل ما هو مهجور غير مطروق ، سواء في تركيب الجمل أو في اختيار اللفظ .

وليس معنى ذلك أن المازني كان لا ينحري الجمال في صياغة مقالاته ، أو كان يهبط إلى مستوى العمامة ، أو لا يحرص على سلامة اللغة .. بل استطاع في يسر أن يصل إلى حل هذه المشكلة بأن يوازن بين الحفاظ على جمال اللغة - التي وصفت بأنها اللغة الشاعرية - وبين مراعاته مستوى القراء من مختلف الأوساط .

وقد نجح المازني في هذه الموازنة نجاحاً غير مسبوق ، ولعل لطبيعته السمحة السخية أثرها في هذا النجاح ، فقد راح بصوغ مقالاته في أسلوب سلس وراقي ، وإن ظل منسائماً إلى الجمال ، محافظاً على روعة التعبير .

وكان حرصه الأكبر - فضلاً عن سلامة التعبير ، وروعة الصياغة - على تحري الموضوع في الإبانة عما يريد قوله ، والإفصاح في بساطة عن المعاني التي يطرحها على قارئه .. فيؤلا يعرف الغموض أو الإبهام ، ولا يلجأ إلى الزمزم والإلغاز ، بل يعتمد إلى التعبير المباشر ، والقول الصريح ، وما كثرة الجمل الاعتراضية في أسلوبه إلا لهذا الحرص على زيادة الإيضاح ، وعلى ناسي أدنى احتمال للخلط أو للخطأ^(١) .

وإذا كانت المقالة - عند المازني - تجلي ملامح وسمات وخصائص أدبه فإنها كاشفة - بكل وضوح - عن ملامح وطرار تلك الشخصية ، والتي استطعنا أن نرصد ونسجل بعض - وليس كل - تلك الملامح والخصائص من خلال دراستنا

^١ - نفس المصدر (٤٦) .

لأدبه في الصفحات السابقة " ولكن القيمة الحقيقية للمقالة ، نعتمد في المقامر الأول على تجليلها للشخصية الإنسانية نوارى خلفها في خفة وحياء .. إن شخصية الكاتب الأليفة العذبة هي التي نسهرى القارئ ، وذلك عليه أقطار نفسه ، بما فيها من خفة وسحر ، وجاذبية وألق وذوق مصقول لا نفسده فظاظته ، ولين لا يندنى إلى درجة الميوعة ، وكذلك مقالات المازني لا نسهرنا بما فيها من الأفكار العميقة والآراء المنيرة ، بل بما فيها من براعة في التصوير ، ومقدرة على انتراع الفكاهة من أكثر وجوه الحياة عبسا وتجهما " (١)

وتلك بعض المقالات التي احترناها وفيها ، وهي تكشف عن أمرين - كما قلنا

- خصائص أدبه ومهات وطران شخصيته ،

^١ - دكتور محمد يوسف نجم : فن المقالة - نقلا عن كتاب : المازني ساخر العصر الحديث - د. أحمد السيد عوضين (١٠١)

الحياة المصرية ينقصها المرح

نشر في : جريدة الولاى بتاريخ يوليه - ١٩٤٥

لا أعرف كيف حياة أهل الثراء والسعة والخفض فياني لست منهم، ولا عهد لي بهم، وإنما أنا من الشعب وإليه، وقد نشأت فقيرًا، وما زلت — بحمد الله — أفقرَ الفقراء إلى الله وعونه، وأبغض الناس إليّ وأثقلهم على نفسي المتطري المتدليل.

ولكني أعرف حياة الأوساط العاديين من أمثالي، وهي في الأغلب والأعم حافة قابضة خانقة مع الأسف؛ لأن القاعدة التي تقوم عليها مقلوبة، والقضية فيها معكوسة، فالرجل يعتقد أنه ينبغي أن يكون في بيته السيد الأمر المطاع، ولست أنكر عليه ذلك؛ فإن هذا حقه على أن يعرف كيف يستعمله دون أن يُغفل واجبه فإن كونه هو رب البيت أو سيده ليس معناه أن الذين معه فيه عبيد أرقاء وخدم أذلاء، وما أكثر ما يكون معنى السيادة علو الصوت، وكثرة الصياح، وسرعة الغضب، وعنف المقال، وشدة الزجر. ونرى الرجل يكون في بيته ومع زوجته وبنيه كالبحر الوجه مقطَّب الجبين، شكسًا شرسًا، حتى إذا خرج تطلق وجهه، وأشرقت ديباحته، وكثر ضحكه، وصار خير أنيس وأظرف جليس، فالنفخة الكذابة والمرح للإخوان دون الأهل.

وهذا الحال المقلوب يرجع إلى أمرين على الخصوص فيما أرى: الأول الخطأ الشائع بين الأوساط العاديين، وخلاصته أن المرأة لا يجوز معها إلا الشدة، وأن ذلك أجدى وطريقة أقصر من تكلف سياستها بالحكمة والحسنى. وما زلت أذكر قصة قصها على قريب لي وأنا حدث، وأكبر ظني أنه أراد أن يعظني ويدلني على النهج الأقوم

قال إن «جُنْدِيًا» من الأتراك القدماء تزوج، فلما كانت ليلة الجلوة، ودخل على امرأته، وجلس معها إلى المائدة رأى قطعة، فاستل سيفه وضرب به عنقها، ثم مسح الدم وأغمده فريعت المرأة المسكينة واستقام أمرها بعد ذلك! وأحسب أن كثيرين حتى ممن لم يسمعوا بهذه القصة، يُؤثرون أن يكونوا مع زوجاتهم على هذا النحو؛ أي وحوشًا تُخشى ويُتقى شرها لا بعولاً تُحب وتُحترم.

وقد يستطيع الرجل أن يكون مرهوب الجانب كهذا «الجندي» السيف ولكن امرأته إذا كانت ذكية أديبة تستطيع أن تركبه كالحمار وتدعه يتوهم أنه هو السيد الذي تُفزعها نظرتة، وتصعقها صيحتة، بل لعلها لا أعدو الحقيقة والواقع حين أقول إن مثل هذا الرجل لا يكون زمامه إلا في يد امرأته وهو لا يدري - أو يدري ولكنه لا يعرف له حيلة إلا أن ينقاد - ثم يروح يتعزى بأن يظهر الغطرسة والتجبر من حين إلى حين، وهو واثق أن امرأته لا يشق عليها أن تلين له مرة وتسايره وتحاسنه ليسلس لها قياده في غير ذلك وفيما هو أهم عندها.

والأمر الثاني الذي يرجح هذا السلوك الأعوج هو ظن الكثيرين أن الاحترام لا يكون إلا بالجهامة والشتامة، وأن التبسط أو المرح يُضيع الهيبة وأن التَّفَكُّهُ يُنافي الوقار، وأنا ما أظن إلا أن العكس هو الصحيح؛ أي إن تكلف الجهامة بلا موجب تُغري بالسخرية، وأن الحرص على مظاهر السمات والأبهة في غير موضعها - أو ما يسميه العلمة النفخة الكدابة - تجعل المرء عرضة استهزاء وعبث، وما على من يشك في ذلك إلا أن يجعل باله إلى الأطفال في البيوت وكيف يقلدون الكبار، فلن ترى طفلاً يقلد كبيرًا من أهل الظرف والدعابة والمرح، وإنما يقلد من يتكلف الوقار وصرامة الجد ومن ينفرد بالعبوس والزجر.

وقد كُنَّا تلاميذ صغارًا فلم يكن أبعث لنا على التشيطان من المعلم الصخب الذي لا يقدر على كَفِّ جفوته وشراسته ولفه؛ فكنا نرسمه على السيرة على هيئة مضحكة، ونكتب له بالطباشير الملون على الجدران كلامًا مزريًا، ويقف بعضنا في الصف أو الفصل فيروح يقلد حركاته وإيماءاته ولهجته ومشيته ونفخته وكنا قلّمًا نهدأ أو نُحسن الإصغاء إلى درسه، وكنا ربما بلغ من اجترائنا عليه أن نقلده على عينه فإذا دعا أحدنا إلى القراءة مثلاً أو ألقى عليه سؤالاً، نطق كما ينطق، ونفخ أوداجه كما ينفخها فينفجر التلاميذ ضاحكين، ويطير عقل المعلم ولكن ماذا يصنع؟ وكنا ربما ركبناه بشر من هذا العيب الخفيف المحتمل، فيستجير ولا يجير، ويلجأ إلى الناظر شاكيًا متسخطًا فلا يجديه ذلك بل يؤذيه أن يعرف الناظر أنه لا يستطيع أن يحفظ النظام وأنه لا احترام له عند التلاميذ. أما المعلم الظريف اللطيف فكنا نُقبل على دروسه ونطيعه لأنه يشعرنا أن بيننا وبينه صلة مودة، ولأنه ينعش نفوسنا بما يفيضه على درسه من المرح الخفيف.

وما يقال عن الرجل يقال مثله عن المرأة؛ فإنها لا تبرا من التبعة عن ثقل وطأة الحياة في بيتها وجفافها وبيسها، والبيت مملكة المرأة كما يقولون لأن الشأن فيه كله أو معظمه لها، فكيف تسوس هذه الدولة الصغيرة؟ لا شك أن هناك سيدات فضليات يُحسِنُ سياسة هذا الملك الصغير، ولكنه لا شك كذلك في أن اللواتي لا يُحسِنُ السياسة أكثر من اللواتي يُحسِنُها، ولك أن تقول إنهن هنّ الجمهور الأكبر والسواد الأعظم، ومنهن من تؤدي عملها المنزلي بنفسها ولا تُكلِّهُ إلى خادمة أو خادم، ولكنها قلّمًا تدير في بيتها إلا في مبادئها، فلا ترتدي ثوبًا مقبولاً إلا لتخرج أو لتستقبل ضيوفها، وقلّمًا تكف عن الشكوى مما تعاني، وقلما تجلس إلا على هيئة

منفرة، وخدها على كفها، وقد تكون معذورة إذ هي ضجرت وسئمت واشتكت من التعب والعناء.

ولكن الرجل ليس أحسن منها حالاً؛ فإنه هو أيضاً مكدود مرهق سأمان وليس مما يخفف عنها أو عنه أن تتلقاه هكذا: الثياب رثة، والخد على الكف، والعين كالزجاجة لا معنى فيها ولا حياة، والوجه ساهم والشفتان مطبقتان، فإذا نطقت تأففت وتوجعت وتكلمت بكلام الضجر والتعب، وإذا حاول أن يلاطفها وبمازحها رَجَتْ منه - إذا كانت فيها رقة وأدب- أن يدعها لحالها، وإذا كانت طويلة اللسان شكسة الطباع أسمعته ما يكره، وألطف ما تقول له: « اذهب إلى غيري فمازحها فإني لا أحب المرح. » ويدور الرجل يَنْشُدُ ما يسليه ويُرْفَعُ عنه فلا يجد شيئاً، حتى الحديث الطيب لا يفوز به، أفليس معذوراً إذا فَرَّ من البيت إلى المقاهي؟

ولست أبرئ الرجل فإنه شَرٌّ من امرأته، وفي وسعه أن يروضها على ما يوافقها، ولكنه نشأ فألفى البيت هكذا قابضاً خانقاً فجرى على سنة أبيه وراح مثله يعد البيت سجناً أو فندقاً للنوم ومطعماً على أحسن الوجوه.

والبنون والبنات مصيبتهم كبيرة: لا يسمعون إلا الشتم والتوبيخ واتهامهم بقلّة الحياء وسوء الأدب كلما تحركوا أو ضحكوا أو لعبوا، كأنما لا بد أن يكونوا دُمى وأصناماً في السن التي تكون حيواتهم فيها مظهرها الأكبر حركة البدن.

ونحن أمه فيها فكاهة قوية، ومع ذلك نحيا حياة تقصر العمر، ومن الخطأ أن يظن أحد أن المرح خارج البيت يُعني عنه في داخله؛ لأن البيت هو الأصل والحياة فيه هي التي عليها المعول، أما ما يظفر به خارجه فيمثابه « التصبيرة » أي شيء

يستعين به الإنسان على الاحتمال والصبر حتى يعود إلى بيته فيظفر بما كان يتطلع إليه ويتشدد ويتجأد حتى يجيء أوأانه.

والمرح يطيل العمر — هذا ظني، بل يقيني — والأعمار بيد الله، ولسنا نعرف ما كتب الله لنا في لوحه وغيبه، ولكننا نعرف أن المرح يشرح الصدر ويصلح ما يتلفه الكدُّ من الأعصاب، ويجعل المرء أصفى ذهنًا وأقوى على العمل ومواصلة الكدح وأكثر جَلَدًا وأقدر على المقاومة والكفاح وأقل استعدادًا للتهاؤت والتضعع.

وليس المرح من الاستخفاف، فالرجل المرح لا يُعدُّ قليل الاحتفال بالأمر الجدية أو سيئ التقدير لها؛ لأن صحة التقدير لا تنافي إعطاء النفس حقها من السرور الذي يشد الأعصاب ويصلحها ويعالج تلف الأنسجة في البدن، ولماذا نسمع الموسيقى والغناء ونشهد الروايات الفكاهية وما إلى ذلك؟ ولماذا نقسم حياتنا هذه القسمة العجيبة، فنجعلها في البيوت كربًا عظيمًا وهمًا ثقيلاً، وخارجها مرحًا وطريًا، والعكس أولى؛ فإن البيت سكن، والذي فيه أعز الناس علينا وأحدهم إلينا فهم أحق بأن نجعل حياتنا معهم كلهم بهجة وبشاشة وسرور. كان لي صديق أغناه الله عن الكدح في سبيل الرزق، وكانت داره من الطراز القديم، «فالحريم» له جناح والرجال لهم جناح مستقل، وكان يندر أن يبرح بيته، ولم يكن له أولاد، فليس في البيت إلا زوجته وخدمه من النساء والرجال، فكان إذا استيقظ ضحى، يخرج إلى جناح الرجال فيبقى فيه إلى الهزيع الثالث من الليل، يتغدى وينام، ويشرب قهوة العصر، ويقبل زواره فيجالسهم ويحدثهم ويمازحهم، ويتعشى وحده أو مع من يشاء من ضيوفه، ويقضي بقية السهرة مع من يبقون ممن يطبقون السهر أو بمفرده، ثم يدخل لينام وكنت أستغرب حياته هذه وأستهجنها، ويدركني

العطف على زوجته المسكينة، وألومه على ذلك، وأقول له، فيما أقول: إنك لا تعدّها زوجة وإنما تعدّها « أنثى » اتخذتها في بيتك، وإنني أخشى عليها، فيسخر مني ومن فلسفتي، غير أن زوجته المسكينة جُنّت؟ ولعله لم يكن يحبها، فما أدري، ولكن لماذا كان يسكها إذن؟ وقد كان بادي الرضى بحياته هو، ولكن الزواج مشاركة، وليس من العدل أن يستأثر الرجل بما فيه له رضوان؛ فإن لامرأته حقاً في ذلك. احرصوا على المرح في بيوتكم؛ فإنه لا يغني عنه ما تظفرون به خارجها.

الكتابة وثقلها

نشر في : جريدة السياسة الأسبوعية بتاريخ : أكتوبر ١٩٣٠

قد أعرف لماذا أقرأ وما يستهويني من الكتب ويغريني بالإطلاع، فإن أقلّ ما في ذلك أنه نقلت إلى عالم غير دنيانا الحافلة بالمنعصات المائجة بالمتعبات، ولكني والله لا أدري لماذا أكتب؟ ولست أراني أفدت شيئاً ولا لي أمل في شيء، وأحسبني بين الكتاب الوحيد الذي يعيش بلا أمل جادٍ أو طمع مستحث، بل لعلي الكاتب الوحيد الذي يعتقد أن الدنيا لا تخسر شيئاً - وقد تكسب - إذا خلت رقتها من الأدباء والشعراء، واعتقادي هذا فرع من أصل أعم وأشمل، هو أن الدنيا لا تنقص إذا قضت « الحياة » نفسها تحيها فلا إنسان ولا حياة ولا نبات، وقد غير زمن كنت فيه مجنوناً كشيخلي، فالآن صار جنوني بهوان الحياة وغرور الإنسان وعبث العيش كله، وما لقيت نعماء أو أصابني ضراء إلا قلت كما قال سليمان بن داود:

« باطل الأباطيل، الكل باطل » حتى لقد هممت أن أسمى كتاباً لي « باطل الأباطيل ». كما سميت آخر « قبض الريح »، وثالثاً « حصاد الهشيم ». فليس إشاري لهذه الأسماء عن تواضع كما توهم البعض، بل عن نزوع إلى الاستخفاف حتى بالنفس، وعن شعور قوي بمرارة الهوان الذي أجده لهذه الحياة وكل مظاهرها.

وليس أبغض إليّ من الكتابة، ولا أثقل على نفسي من تناول القلم، وما أعرفني كتبت شيئاً إلا بعد أن أعيا بالتهرب وأعجز عن الإفلات، وليس هذا لكسل فإني لا أطيق السكون، ومن أعرب ما يحدث أني أراني — كلما أردت الكتابة — أحاول قبل معاناتها أن أعزّي نفسي بأحلام اليقظة، فأوي إلى فراشي وأستلقي عليه وأغمض جفني وأذهب أحضر إلى ذهني صوراً شتى من الحياة كما أشتهي أن

تكون، على قدر ما يستطيع خيالي أن يُلقِّق، ولا أزال كذلك حتى يغلبني النعاس أو ينهضني الشعور بالواجب، إذا كان الوقت أضيق من أن يتسع للأحلام، وفيما عدا ذلك لا أحب الأحلام ولا أؤثرها على الحقائق.

ولو كانت القدرة على اختيار الموضوع تسعفني لكنت حقيقاً - على الأرجح أن أكون أنشط إلى الكتابة، ولكن اختيار الموضوع أشق عليّ وأشدّ عذاباً من الكتابة نفسها على فرط مقتي لها واستثقالها لمعاناتها، وأنا أحسُّ - حين أعالج أن أهتدي إلى موضوع صالح للكتابة - كأن رأسي قد صار «قهوة برابرة» أعني مكاناً يكثر فيه اللغط وتشتدّ الضوضاء ولا يدري المرء كيف يفهم الناس بعضهم عن بعض، كذلك يكون رأسي، كل ما فيه ضجة عالية مرهقة تنتهي بالصداع والعدول عن الكتابة أو إرجائها إلى وقت آخر أحس فيه أنني أصح وأكثر تيقناً لها.

والواقع - عندي على الأقل - أن نفسي لا تكون متهيئة للكتابة في كل وقت أو كلما أردت، ويُخِيل إليّ أن هناك أوقات تحس فيها النفس مثل نشوة الخمر وهذا هو الذي أعنيه بالتعب، وقد كنت أُجرب ذلك أيام كنت أكتب وأنا في سراح ورواح؛ أعني لما كنت غير مطالب بالكتابة، أما الآن فقد صارت الكتابة صناعة وعملاً أؤدِّيه وأنا كاره لتكرره يوماً بعد يوم بلا راحة أو استجمام، ولقد سألتني بعضهم - في رسالة بعث بها إليّ - لماذا لا أقول الشعر الآن، وليس لي من جواب عن ذلك سوى أن الصحافة هي التي قطعني عنه، والصحافة تُكسب الكاتب مرونة في الأسلوب وسرعة في الأداء، ولكنها تفسد عليه «فن» الكتابة، ولا سبيل إلى الاستغناء عن «الفن» في الشعر إذا أمكن الاستغناء عنه في كتابة الصحف - المصرية على الأقل - وأقول المصرية لأن الكاتب فيها مرهق، يضطلع بأكثر مما

يجوّد معه العمل، وهي في بلادنا تغني النفس وتقمع النشاط وتخزي باليأس؛ لأن المرء يكون فيها كالذي يُضرب بالسياط، لا يحس الدنيا حوله، وإنما يحس العذاب الذي هو فيه.

أحسنت ككفت عن الشعر أيضًا لأنني أعلى به عينا، أعنى أنني انتهيت إلى أنها إحدى اثنين، فإما أن يقول المرء شعراً من أعلى طبقة وإما أن يريح نفسه ويريح الناس فلا خير في غير الكلام الخالد على الدهر، وأنا أعرفُ بنفسي من أن يداخلني الغرور في شأنها، ولقد نظرت فيما قرضت من الشعر فهزيت رأسي وقلت « هذا كلام فارغ، وأولى بي أن أعرف قدر نفسي، فلاقلع » ورميت ديواني، حتى ما أعرف أين هو الآن إذا كان لا يزال باقياً!

والشعر- على كونه إلهاً - فن يسلس بالمرانة، وقد أهملته حتى صرت لا أستطيع أن أنظم شطراً واحداً، وحسناً فعلت، فما ينقص الدنيا الكلام الوسط؛ فإنه فيها كثير بحمد الله ثم حمد الغرور الذي فُطرَ عليه الإنسان.

المال

نشر في جريدة : السياسة الأسبوعية بتاريخ : يوليو ١٩٣٢

أوصاني أبي وأبوه وكل جَدِّي لي إلى الشيخ آدم أن أكنز المال، قالوا: والمال عصب الحياة، بل هو الحياة، ولا قيمة لشيء في الدنيا بغيره، وليس بحيٍّ مَنْ ليس له مال وغاية حظه أنه موجود في الدنيا ومحسوب في الأحياء على التسامح، قالوا: ولا حرية لفقير، ولا حق لمُعْذَم، ولا كرامة لفلن، وإذا لم يكن للإنسان مُدْخِر حين يمد اليد حتى إلى الأجر الذي عملتْ به، فقد خضعت رقبته لمُعْطِيه حَقَّه، وهان عليه أمره.

قالوا، وكن مَنْ شئت أو ما شئت أدبًا أو علمًا أو حُلُقًا، فليس بمُجْدِيك هذا فتيلًا ولا رافعك كثيرًا أو قليلاً، إذا كنت فقيرًا، وأحر حينئذٍ بالأدب أن يكون من ذنوبك التي تُحصَى عليك، ويعلمك أن يكون مدعاة لكرهك أو استنقال ظيِّك وبالخلق الذي أنت عليه أن يَجْرَ عليك الهزيمة والغمط والاستخفاف، ثم كن من شئت فراغًا أو جهلاً أو سوء خلق، فلن يضريك هذا إذا كان لك مال، فإنه شفيح لا يخيب وستر لا يكشِّف، ودرع سميكة تقيك وترد عنك النصال مكسرة، ولا تصدق أن في دنياك عدلاً، أو أن القوانين تكفل لك حقًا، أو أن كونك إنسانًا يجعلك مساويًا لأي إنسان سواك، إنما العدل هو المال، والحق هو المال، والمساواة هي المال، وعلى قدر مالك تكون الرغبة في إنصافك، والاجتهاد في إعطائك حَقَّك وتقديمك أو تأخيرك ورفعك أو حطِّك، بل نظرة الإنسان إلى الإنسان ترقُّ أو تجفُو، وتدعو أو تطرد، وتكرم أو تهين، وترحب أو تغضي، ويلمع فيها نور البشر أو يفتريها الملل أو يسودها النفور تبعًا لماليَّهِمَا، والمال يقلب المذامَّ محامد، والفقر يعكس الآية ويقلب القضية.

قالوا: ولا ديمقراطية ما دام أن في الدنيا شيئاً اسمه المال؛ لأن المال يقسم الناس فريقين: غنياً، أي ليست به حاجة، وفقيراً، أي به حاجة؛ ولا يستوي مستغنٍ ومحتاج، وكل ما يحاوله الإنسان من تنظيم حياة الخلق على قواعد الاشتراكية أو الشيوعية أو غيرهما مما يمكن أن يخطر له، عبث وباطل ومحال، فاعرف هذا واجعل وَكَذَلِكَ جمع المال وتكديسه فإنه أجدى عليك من كل تعبك تحت الشمس.

قالوا: وقد كان اليونان الأقدمون يزعمون في بعض أساطيرهم أن المرء بعد الموت ينحدر إلى وادي الأشباح، وهناك يتلقى « أتروب » الموتى ويحصيهم، ويسلمهم إلى « شارون » النوتي لينقلهم على زورقه ويعبر بهم نهر « ستيكس » - أو نهر النسيان إذا شئت - إلى حيث يحاسبون، والنقل على الزورق بأجر، ولا بد أن يؤدي الميت هذا الأجر إلى شارون النوتي، وإلا امتنع عن نقله، وتركه معلقاً بين الدنيا والآخرة!

فحتى الآخرة فيما تصف هذه الأساطير الإغريقية يلقي فيها ذو المال التيسير ويشقى فيها الفقير، فاعرف هذا ولا تنسه.

والمال هو الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والشرف والضعف والكرامة والمهانة والقوة والضعف، والقدرة والعجز، ولا تصدق من يقول لك غير ذلك، جرد الدنيا من المال تمح كل هذا، وتترك الحياة باهتة مسيحة لا لون لها ولا طعم، ولا طماح فيها ولا سعي، ولا شيء من المغريات بهما، وقد أضنى الفلاسفة عقولهم في البحث عن أصل الخير والشر وغير ذلك، والأصل تحت أعينهم، وهل ثم أصل غير المال؟ ومن كان يرتاب في أن الأمر كذلك، فما عليه إلا أن يتصور الدنيا - إننا وسعه ذلك - وقد خلقت من المال، فكيف يراها تكون؟ وإلى أي حال يرتد الناس؟ وعلى أية قاعدة من

الأخلاق أو سواها تقوم العلاقات بينهم، وعلى أنه لا حاجة بأحد أنه يرهق نفسه ويكلفها أن نتصور هذا الذي يكاد يستعصي على الخيال، وبحسب مَنْ شاء أن يفكر في أية خلة من خلال الخير أو الشر وفي ارتباط المال بها وأثره فيها، فإن التأمل حقيق أن ينتهي به إلى الإيقان بأن المال — كائنة من كانت صورته — يوشك أن يكون هو الذي أتاح للفضائل والرذائل وللخير والشر فرصة « التسمي »، وأعانها على البروز بعد أن هيأ لها أن تُعرَف بأسمائها، ولا شك أن المال لم يخلق في النفس الإنسانية نزعاتها وعواطفها، ولكنه هو الذي أكدها وأظهر الكامن فيها، وأقام المعالم ورسم الحدود وأحوج الإنسان إلى النظام والتشريع.

وأذكر على سبيل التمثيل أن « ليكرج » المشرع الأسبرطي فطن إلى فعل المال وأثره في الحياة وفي عادات الناس ونفوسهم وعلاقاتهم فعمد إلى الذهب والفضة فنفاهما وأمر أن لا تُسكَّ من هذين المعدنين الساحرين نقود، وأن تُتخذ العملة من الحديد، وجعل القيم خسيصة، فكانت القطعة الضخمة التي يعيا بحمل ثلاث أو أربع منها الرجلُ القوي، لا تساوي شيئاً يستحق الذكر، فكان أن كفَّ الناس عن ادخار المال؛ لأن الكوم من هذا الحديد لم يكن يعدل قطعة صغيرة من الذهب وانصرفوا عن البذخ والترف في معيشتهم، إذ كان الحديد لا يُقتنى ولا هو يشتري شيئاً، ولم يبق هناك ما يستحق أن يُسرق، فبطل التلصص وانقطع السطو وامتنعت الخيانة وما إلى ذلك، وزال التحاسد لأن الغنى والفقير صاراً اسمين لا حقيقة لهما ولا فرق بينهما إذا اعتبرت الواقع، ووقفت التجارة في حدود البلاد ومع ما وراءها وعلى القارئ أن يتم الصورة ويلونها إذا وسعه أن يهتدي إلى ألوانها.

وقد اتخذت النقود دوماً إليها في أول الأمر وسيلة لتسهيل المبادلة والمقايضة ولا تزال كذلك إلى يومنا هذا، ولكنها صارت تُطلَب لذاتها وتُجمَع وتُدَّخَر رغبةً فيما تفيده من الاقتدار والشعور بالاطمئنان والكرامة والجاه والسطوة؛ فتسابق الناس إليها، وتهالكوا عليها، وانقلابت غرضاً يُطلَب ويُسعى له، وإن كانت قد ظلت مع ذلك وسيلة إلى ما وراءها مما تُعين عليه، وهذا التهاك العنيف على المال واقتنائه هو الذي أظهر الكامن في النفس الإنسانية، وكشف عن المستور، ودفع به إلى السطح وأطفاه على اللُجَّة، كالبحر لا ترى منه وهو ساكن غير صفحته المصقولة حتى إذا جاش وأزید قذف بما في جوفه من طيبٍ وخبيث.

قالوا: وليس أقوى من المال إلا القدرة على الاستغناء عنه، فمن كره أن يحشد المال ويشد به أزرده ويقدي به ساعده، فلينفذ منه يده، ولما كان المال هو كل ما في هذه الدنيا مما ترضى عنه وتتسخطه، وتُجلُّه وتحقره، وتفرح به وتحزن له، فنفضُ اليد منه معناه ومُوداه نفض اليد من الدنيا نفسها، وإذا كان المال قوة، فإن أقوى القدرة أن تستغني عن القوة، والزاهد الذي يصقِّي نفسه ويخنق شهواتها ويقتل أهواءها ويروضها على الاستغناء عن كل ما يطلبه الناس ويسعون له — هذا يخلق من روحه قوة تربي على قوة المال ولا تبالِها.

قالوا: فإما أن تغني أو تزهد، وإلا عشت محتاجاً إلى الناس، والناس من تعرف كذلك أوصاني أبي وأبوه وأجدادي إلى آدم.

صور وأخلاق: المال

نشر في مجلة: الجديد - بتاريخ مارس ١٩٢٩

المال هو الفضيلة والرذيلة، وهو الخير والشر، وهو كل ما في هذه الدنيا مما ترضى عنه وتتسخطه، وتُجلبه وتحقره وتفرح به وتحزن له، والناس بالمال، والرجل بلا مال لا رجل ولا شيء له حساب أو قدر، ومن كان يرتاب في أن الأمر كذلك أو لا يصدقه فما عليه إلا أن يتصور الدنيا — إذا استطاع — وقد خلت من المال فكيف يراها تكون؟ وإلى أي حال يرتد الناس؟ وعلى أي قاعدة من الأخلاق أو سواها تقوم العلاقات بينهم؟ وعلى أنه لا حاجة بأحد إلى إرهاق النفس وتكليفها أن تتصور هذا الذي يستعصي على الخيال، وبحسب من شاء أن يفكر في أية خلة من خلال الخير أو الشر وفي ارتباط المال بها وأثره فيها، فإنه حقيق أن ينتهي به التأمل إلى الإيقان بأن الذي اخترع النقود يوشك أن يكون هو الذي أتاح للنضائل والرذائل وللخيل والخير والشر فرصة «التسمي» وأعانها على البروز بعد أن هيا لها أن تُعرف بأسمائها، ولا شك أن المال لم يخلق في النفس الإنسانية نزعاتها وعياطفها، ولكنه هو الذي أگدها وأظهر الكامن منها، وأقام المعالم، ورسم الحدود وأحوج الإنسان إلى النظام والتشريع.

وأذكر على سبيل التمثيل أن أحد المشترعين من الأغرقة الأقدمين فطن إلى فعل المال وأثره في الحياة وفعله في عادات الناس ونفوسهم وعلاقاتهم فعمد إلى نذهب والفضة فنفاهما وأمر أن لا تسك من هذين المعدنين الساحرين نقود، وأن تتخذ العملة من الحديد، وجعل القيم خسيصة، فكانت القطعة الضخمة التي يعيا بحمل ثلاث أو أربع منها الرجل القوي، لا تساوي شيئاً يستحق الذكر، فكان أن

كف الناس عن ادخار المال لأن الكوم من هذا الحديد لم يكن يعدل قطع صغيرة من الذهب، وانصرفوا عن البذخ والترف في معيشتهم إذ كان الحديد لا يشتري شيئاً، ولم يبق هناك ما يستحق أن يُسرق، فبطل التلصص وانقطع السطو وما إليه، وزال التحاسد لأن الغنى والفقر صارا اسمين لا حقيقة لهما ولا فرق بينهما إذا اعتبرت الواقع، ووقفت التجارة في حدود البلاد ومع ما وراءها، وعلى القارئ أن يتم الصورة ويلونها إذا وسعه أن يهتدي إلى ألوانها.

وقد اتُّخذت النقود أو ما إليها في أول الأمر وسيلةً لتسهيل المبادلة والمقايضة ولا تزال كذلك إلى يومنا هذا، ولكنها صارت تُطلب لذاتها وتُجمع وتُدخَّر رغبةً فيما تفيده من الاقتدار والشعور بالاطمئنان والكرامة والجاه والسطوة، فتسابق الناس إليها وتهالكوا عليها وانقلبت غرضاً يُطلب ويُسعى له وإن كانت قد ظلت مع ذلك « وسيلة » إلى ما وراءها مما تعين عليه، وهذا التهاك العنيف على المال واقتنائه هو الذي أظهر الكامن في النفس الإنسانية، وكشف عن المستور، ودفع به إلى السطح، وأطفاه على اللجّة، والمرء في سكونه غيرده حين يهتاجه شيء، كالبحر لا ترى منه وهو ساكن غير صفحته المصقولة، حتى إذا جاش وأزبد قذف بما في جوفه من طيب وخبيث.

فالمال داء الإنسانية وليس له مع الأسف دواء ولا منه شفاء، وأحس ما يكون المرء بذلك حين تصفر كفه وتسد الأفاق في وجهه.

في الكتابة والكتب

نشر في جريدة البلاغ - يونيو ١٩٤٣

كتب بعض الأفاضل يسأل عن « المازني » ما له لا يخرج للناس كتبًا في هذه الأيام. وكتب إليّ بعض الإخوان — قليل منهم — يسألني عن السر في هذا الصمت أو الكسل، أو عن داعيه، ويحضّني على التّأليف والإنتاج، وروى لي أصدقاء أوفياء أحاديث بهذا المعنى دارت في مجالسهم.

فالمسألة إذن تستحقّ أن أقول فيها كلمة على سبيل البيان لا الدفاع، فما يحتاج من لا يصنع شيئًا إلى دفاع، أو هو عسى أن يكون الدفاع منتظرًا منه، ولكنه يستطيع أن يلزم الصمت بلا ضير عليه، وأحسب أن السؤال لم يبقَ له محلّ بعد أن أخرجت ثلاثة كتب في شهرين، دفعنا اثنين منها إلى السوق وهما « عود على بدء » و« إبراهيم الثاني » وفرغنا من أمرهما وحبسنا الثالث وهو « ميدو وشركاه » بضعة أيام لسبب خاص ثم تلقى به في الموعد الذي آثرناه له.

غير أن هذا لا ينفي أنني لبثت زمنًا لا أخرج شيئًا من كتيّ فهل كان لهذا

داعيه؟

ويحسن قبل كل شيء أن أتقي تهمة الكسل، وإن كنت أعترف أنني أكسل خلق الله، وأزهدهم في كل عمل وأرغبهم في راحة، فإن عندي بضعة كتب أخرى — خمسة إذا أردت الدقة — لا ينقصها إلا أن أجد ما يشجع على تهيئتها للطبع كأن أجد الورق، أو المال الجم الذي يكفي لاقتناء ضيعة، فأشتري به هذا الورق العزيز الذي صار يساوي وزنه ذهبًا، أو يتيح الله لي ناشرًا ظريفًا منصفًا لا يغبن، وبقنوعًا لا يطمع، ولا يجعل همه وكده أن يقنع المؤلف بالاكتفاء بفرحته بظهور كتابه!

أو ناشراً يتحلى بهذه الصفات الحميدة، وعندده فوقها الورق الكافي. وما أكثر الناشرين الظرفاء، ولكن البلاء هو الورق، وأنت لا تعرف هؤلاء الناشرين أو لا تستطيع أن تعرض نفسك على من تعرف منهم، أو أنا على الأقل لو يدخل هذا في طاقتي، وإني لأؤثر للكتاب أن يُحرق على أن أعرضه فيعرض عنه من تخاطبه فيه، وعسى أن تكون هذه أنفة لا مسوغ لها، ولكن الله يخلق الناس كما يشاء هو لا كما يشاءون.

وليس بكسلان فيما أظن من يستيقظ قبل الطير وقتل أن يتنفس الصبح صيفاً وشتاءً ثم يتوكل على الله ويجلس إلى مكتبه من الخامسة إلى ما بعد التاسعة، ويقضي هذه الساعات الطوال التي يطيب فيها النوم في قراءة أو كتابة، ثم يغدو على «البلاغ» فيؤدي له حقه، ثم ينصرف إلى غير ذلك ممّا يكون عليه عمله ثم يتغذى متوخياً التقليل والتخفيف، ويستريح نصف ساعة، ويقوم مرة أخرى إلى كتبه وأوراقه، حتى إذا كانت السادسة تمثى قليلاً، أو باشر أمراً آخر، ثم عاد في الليل على مكتبه فنقي فيه إلى منتصف الليل وزيادة، إلا أن يسقم فلا يبقى له معدى عن الكف.

وليس معجباً - وهذا ما وصفت من سيرتي على الجملة - أن ينتابني الملل أحياناً حتى لأهم بأن أوقد ناراً أُلقي عليها كل ما عندي من كتب وأوراق، وأراني في هذه الحالة لا أكاد أطيق النظر إلى كتاب، وأروح أتساءل: «ما الفائدة؟ فيم كل هذا العناء؟» لن تنقص الدنيا شيئاً إذا نقصت هذا المازني، فما أراها رادت به وإنها لتستغني عن أجيال متلاحقة من الكبار والصغار، والصالحين والطالحين وكأنهم ما كانوا عليها ولا دبت بهم الرجل فوقها! أقول فوقها؟ وما فوقها هذا

أو تحتها، وأين هو؟ وما هذا الإنسان، وما خيره على كل حال؟ وليس هذا من الشك في حكمة الله سبحانه، ولكنه من فرط الإحساس بالنفس، واستهوالها أن يكون شيئاً، ثم يصبح لا شيء، وعدمًا مطلقًا إذا كان هناك عدَمٌ مطلق وعدم غير مطلق أو من العجز عن فهم ذلك، أو عن رياضة النفس على السكون إليه.

وأسأل نفسي أيضًا، وهبني لم أكنُ كتبت أو نشرت شيئاً، فماذا كنت خليقاً أن أخسر، أو ماذا كان الناس خليقين أن يخسروا؟ لا شيء، فأما أنا فكنت أكل وأشرب، وأعيش كما يعيش الأكثرون، ولا أرفع عيني عن الأرض، ولا أصعد طرفي إلى السماء، وكفى بهذه نعمة، وبحسب المرء من المتاعب والمنغصات ما يكابده أمثاله ولا حاجة به إلى زيادة تجيء بها القراءة والكتابة والتفكير، وتالله إن الإنسان لمسكين! صار إنساناً لما استطاع أن يقف على رجلين اثنتين، ووسعه بفضل ذلك أن يجبل عينه فيما حوله وأن يرفعها أيضاً إلى فوق، وقيل إنه ارتقى، ولكن ارتقاءه حرّمه ما كان ينعم به وهو حيوان يمشي على أربع كغيره من الحيوانات؛ لأنه صار الحيوان الوحيد في كل هذه الدنيا الطويلة العريضة الذي لا مفرله في العمل والكدح ليأكل ويشرب، فهو لا يأكل إلا إذا سعى وكد، ولا ينال إلا بقدر ما أوتي من القدرة وهو الحيوان الوحيد الذي يُعَقِّدُ الأمور على نفسه ويخلق لها المشاكل ويمنيها الأمانى، ثم يروح، يعالج أن يحل هذه العقد، أو يدرك مناه، أو يحقق ما يحلم به ولو ذاق في سبيل ذلك الأمرين!

على أن هذا استطراد مُغَرِّم لم يكن في النية، فيحسن أن أقصر، وإلاً اتسع مجال القول فلا تنتهي في يومنا هذا.

وأعترف أن أول كتاب لي أخرجته - وكان ديوان شعر سامحني الله وعفا عني أفرحني، فكنت لا أنفك أتناوله وأتأمل غلافه وورقه وأقلب صفحاته وأقرأ فيه وأنا جذل مزهو، وأستقصي أن أسمع مدحه والثناء عليه، فإذا فاتني ذلك اشتبهت أن أسمع ولو قدحًا، فإن كل ذكر له ولو بالسوء خير من الإهمال كأنه لم يكن، ولكني الآن أتناول الكتاب من كئي الحديثة فأقول له:

« يا هذا إنني كتبتك - صنعتك - في عشرة أيام أو عشرين مثلاً، (فإن صبري قليل وسريع النفاذ، ولست أطيق أن يستغرق مني الكتاب - يشغلني بنفسه - أكثر من شهر) وها أنت ذا قد خرجت إلى الدنيا، كنت مستكنًا في رأسي، بل لم يكن لك وجود أحسه وأفطن إليه، ثم صرت كقطع السحاب السابحة، وأكبر الظن أن ليس فيها ماء ولكن خاطرًا خطرًا لا أدري كيف أو لم؟ فضمت قطع السحاب وكسفه بعضها إلى بعض وصارت متراكمة، حتى سدت الأفاق فيما أحس، فإما أن يخرج الودق من خلالها ويسيل وإلا اختنقت، كالحبلى جاءها المخاض، إما أن تضع وإلا هلكت، والآن وقد صرت شيئًا يا هذا، فما أدري لماذا تعبت فيك، ولا ماذا أفيد منك؟ وليس وجودك - بعد أن وجدت - وعدمك كما كنت سيئين فيما أرى أو أشعر، ولكن لماذا أجشم هذا العناء كله، ما قيمتك؟ ما محللك بين مخلوقات الخيال أو العقل من أمثالك؟ إنني لأخشى أن تصبح صعلوكًا بين ملوك الكتب فأكون قد جنيت عليك، كما جنيت على أولادي « الآخرين »؟ ومن أدراني أنك لا تحس؟ أمن أجل أنك لا تنطق، تكون غير مُجسِّد مدرك؟ وعجيب أمرك! إنك إبانة، ولكنك مع ذلك أخرس لا يُبين عن نفسه، وما هي نفسك؟ أهي ما صنعت أنا بما كتبت، أم لك نفس أخرى قائمة بذاتها بعد أن صرت شيئًا قائمًا بذاته؟

وأظل أعذب نفسي بأمثال هذه الخواطر حتى أتنبه، فأكف وأهم بأن أرمي الكتاب ثم أشفق أن يكون قد أوتي الحس وُرُبِقَ الشعور، فأترفق به وقد أُرِيْتُ عليه، ويا ربما تبسمت له ملاطفًا مجاملًا، كأنه يفهم عني، وأتركه وقد كبر في ظني أو وهمي، من يدري؟ لعله يستوحش وحده في هذه الغرفة، وعسى أن لا يجد الخل الموافق له وإن كثرت الكتب حوله! وأقوم — حين يخطر لي هذا — فأرتب الكتب ترتيبًا جديدًا يضم المؤتلفة منها حتى لا تشقيها الفرقة أو تثقل عليها صحبة المخالفين.

ويخيل إليّ أحياناً أنني أسمع لغطاً في المكتبة، كأننا نتحدث الكتب وتتجاوز أو تتهامس فأبتسم وأقول ليتها تفعل، وكثيراً ما أجلس وأروح أتصور حواراً دائراً بين كتابين، ويطيب لي هذا حتى لتمضي الساعات وأنا ذاهل إلا عن الحديث الذي أجره بينهما، ولست أذكر من هذه الأحاديث إلا طيب متعتها، ولولا نسياني وكسلي لسُقْتُ لك بعضه، على أنني أرجو أن أنشط فأثبته.

وأقول الحق أنني ما استطعت قط أن أسلك الكتاب مع الجماد، فإنها عصارة العقول والنفوس، وإنما لورقات لكنها أيضاً معانٍ حية تلاقى عندك ما يوائمها فتتزوج هذه وتولد معانٍ جديدة حية، وهل يجيء الإنسان إلى الدنيا إلا على هذا النحو؟ وما أكثر ما تثير هذه المعاني التي نقرأها في الكتب من معارك في نفوسنا وتعد من مؤتمرات تطول أو تقصر، وتثمر أو تعقم، فكيف تعد من يفعل ذلك جماداً؟ حاشا لله.

مساكين تلاميذ هذه الأيام

نشر في جريدة : أخبار اليوم - بتاريخ : إبريل ١٩٤٦

لم نكن نتعلم في حداًتتنا كما يتعلم أبنائنا الآن؛ فقد كانت المواد قليلة وأمرها مينا ومدة الدراسة وجيزة في كل مرحلة، أو أقصر مما هي الآن، حتى لقد استطعت أن أفرغ من التعليم في المدارس - من ابتدائية وثانوية وعالية - في عشر سنوات ليس إلا، ولم يكن هذا لأني كنت نابغة أو ذكياً أو مجتهداً. كلا، فقد كنت أغنى التلاميذ وأكسلهم وأبلدهم، وآخرهم في كل فصل ولا فخراً وكان التعليم كله باللغة الإنجليزية. إذا استثنينا اللغة العربية. حتى الترجمة كان يتولى تدريسها أحياناً أستاذان: واحد مصري للترجمة من الإنجليزية إلى العربية، وواحد إنجليزي للنقل من العربية إلى الإنجليزية، وكان الأجانب الموظفون في الحكومة المصرية محتماً عليهم أن يتعلموا اللغة العربية، وأن يؤدوا فيها امتحانات متتالية وإلاً فصلوا ورُدوا إلى بلادهم وحيء بغيرهم، وقد يحب القراء أن يعرفوا مبلغ اقتدار هؤلاء ومقدار علمهم بالعربية. فأقول إن أحدهم كان يدرس لنا الترجمة في المدرسة الثانوية، فدق الجرس، وأقبل الأستاذ على الفصل الذي أنا من تلاميذه، وكان معه زميله المصري، فقد كانا يحضران معاً ويتعاونان على تنقيف عقولنا الجاهلة، وكان الصيف قد جاء واشتد حره، فطمئت. ورأيت قلة على شباك في الردهة، فملت إليها لأشرب قبل الدخول في الفصل، ورأني أستاذنا الإنجليزي، وكان فخوراً بأنه يعرف تلاميذه جميعاً بأسمائهم ووجوههم، ولكن ذاكرته خانته في تلك اللحظة، فنسي اسمي، فصاح بي: « أنت هناك اللي يتاكل ميه!

فلا عجب إذا كنا قد نبغنا على أيدي هؤلاء العلماء الفطاحل!

وكان يندر أن يرسب أحد في امتحان ما، وما أكثر ما انتقلت من « سنة » إلى « سنة » على وجه الاستثناء، وليست هذه دعوى أدعيها؛ فقد كانت أسماء المنقولين بحقهم، والمنقولين على وجه الاستثناء تُعَلَّقُ على باب المدرسة، ولو أنه كان لا بد من النجاح في امتحان كل مادة، بالحق والعدل، لبقيت إلى اليوم تلميذاً بالمدارس، أو لما أمكن أن أُنْتَجِرَ فيها، وقد كنا نتلقى في مدرسة المعلمين العليا علوم الجبر العالي والهندسة الفراغية وحساب المثلثات، ولا أدري ماذا أيضاً، وكل هذا مما يعجز عقلي عن فهمه، ومع ذلك نجحت في امتحان هذه العلوم، فهل هذا معقول؟ إنه الاستثناء المسعف ولا شك!

وكنا لا نحتاج إلى دروس خصوصية لسهولة الأمر أولاً، ولفقر الأكثرين ثانياً ولأن معظم المدرسين كانوا يُكرمون أنفسهم، وينزهونها عن الكسب من الدروس الخصوصية، وقد كان كثيرون من تلاميذي فيما بعد يلحون عليّ أن أكون معلماً خاصاً لهم في بيوتهم، فلا أقبل، وأنفأ أن أذهب إلى بيت أحدهم فيقول خالماً: « جاء المعلمي، كما يقول، جاء الفقي ».

ولكن أساتذتنا على قلة ما كانوا يعلموننا، كانوا يحثوننا على القراءة والاطلاع، ويعيروننا حتى كتبهم الخاصة، وكانت هذه القراءة أهم في نظرهم ونظرنا من الدروس التي نتلقاها، وأذكر أنني بعد تخرجي كنتُ جالساً ذات يوم في مقهى وكان معي كتاب لأوليفر وندل هولز، فلمحت أستاذي في اللغة الإنجليزية بمدرسة المعلمين، فخفت إليه لأسلم عليه وأحبيه، ورأى يدي فارغة، فقد تركت الكتاب في المقهى، فكان مما قال لي: « طبعاً أنت الآن موظف، فكفاك ما قرأت، ولا حاجة بك إلى زيادة! » فآلني هذا التهكم، وأصررت أن يجيء معي إلى المقهى ليرى الكتاب

الذي تركته فيه ففعل، واعتذر، وحمدت الله الذي أعفاني من سواد الوجه واستحقاق اللوم.

واليوم يتعلم أبنائنا في المدارس فوق ما تعلمناه وأضعافه، حتى لأرتاع إذ أرى هذه الكتب الضخمة المقررة في كل مادة، وأروج أسائل: متى يستطيع التلميذ أو الطالب أن يحفظ كل هذه الدروس في كل مادة؟ ومتى يرتاحون. أو يخرجون للرياضة والتنزه؟ وكيف يتسنى لأساتذتهم أن يشرحوا لهم هذه الدروس كلها الشرح الواجب، وهم مرهقون بالعمل؟ ثم ما الفائدة التي ترجى من هذا الحشو كله؟

إن التعليم ليس الغرض منه التوجه إلى الذاكرة وحشوها بالمعارف المختلفة وإنما الغرض منه تزويدها أولاً بما لا غنى عنه من المعارف الضرورية، وإيقاظ الذهن وإشأؤه وتدريبه، وإعطاء التلميذ ما يصح أن يسمى « مفتاح » المعرفة، بعد تعويده النظام في التحصيل؛ ليتيسر له فيما بعد أن يدخل من الباب الذي أعطي مفتاحه ويتوسع على هواه. والمشاهد الآن أنه قلَّ بين التلاميذ من يفتح كتاباً غير الكتب المدرسية؛ لأن وقته مكتظ، ولأن أسلوب التعليم يزهد التلميذ في القراءة والتحصيل وينفره منهما ولا يعغيه بهما، وليس العيب عيب المدرس، بل عيب النظام كله؛ ولهذا يكثر الرسوب، وتكرر الامتحانات، ويشتد الطلب على الدروس الخصوصية حتى صارت مورداً ثرياً للرزق، وسبب إرهاب شديد للأباء؛ ولهذا صار التعليم في مصر يستغرق نصف عمر المرء، فيما لأبناء هذا الجيل الجديد من مساكين!

مشقة التحصيل

نشر في مجلة : الرسالة - بتاريخ أكتوبر ١٩٤٥

منذ ربع قرن تقريباً، زارني شاب في جريدة الأخبار وشكا إليّ المرحوم شوقي الشاعر وقال: إنه ذهب إليه يستشيريه فيما يحسن به أن يقرأ من الكتب العربية فأشار شوقي عليه بدرس كتابين وجددهما الشاب من كتب النحو وفقه اللغة فاعتقد أنه أضع ماله. وأن شوقي أخطأه التوفيق. فقلت له: إن شوقي لم يخطئ؛ فإن النحو والصرف وما يجري هذا المجرى لا بد منه، ولا غنى عنه، ولكل لغة قواعدها وأصولها وأحكامها وفقهها، والإحاطة بهذا كله واجبة إذا كنت تريد أن تتخذ هذه اللغة أداة للكتابة. وإلا فكيف تكتبها وأنت لا تعرف قواعدها؟ وصحيح أن الكتب الغربية القديمة تحتاج إلى تيسير مطلبها، ولكن التيسير ليس معناه الإلغاء، فاعرف لغتك أولاً. وادرس أديها. ثم عالج بعد ذلك ما شئت من فنون الكتابة. وأعلم أنه لا مطمع لأحد في بلوغ مرتبة ملحوظة من مراتب الأدب إلا بالاطلاع الوافي، ولمّا كانت لغتنا العربية؛ فهي أدواتنا التي لا أداة لنا سواها ولا سبيل لنا إلى البيان إلا بها. فلا مهرب لنا إذن من تحصيل هذه اللغة والتوفر على درسها.

وقد حدثت شوقي -رحمه الله- بهذا، فقد كنا نلتقي في «الأخبار»، ونذكر على الرغم من رأسي المعروف في شعره، فقال لي: يا أخي قد كنت في بداية عهدي بالشعر بعد أن عدت من أوروبا - ألحن وأخطئ فيسلقني الناقدون بالسنة حديدة. فالآن أنصح للشبان المبتدئين أن يعرفوا لغتهم فيشكونني ويعيبونني بذلك!

وقد قلت أيضًا لذلك الشاب المُلذَم: إنني لا أرى الاقتصار على درس اللغة العربية وآدابها؛ فإنه لا يكفي طالب الأدب، بل لا بد من التوفر على درس الآداب الأخرى ولا سيما الغربية منها. وحسب طالب الأدب لغة واحدة كالإنجليزية مثلاً، فإن براعات الآداب الأخرى مترجمة إليها، وقد كان العرب حصيفين حين عُتُوا بنقل الفلسفة الإغريقية فانسعت آفاقهم، ولسنا نستطيع في عصرنا هذا أن ننقل خارجيات الغرب في الأدب والفلسفة، فإنها شيء لا آخرله، ولكن في وسعنا أن نَطَلَع عليها ونَلِم بها إمامًا كافيًا بإحدى اللغات الغربية، ونحن نلقح الشجر ليثمر ونطعمه ليؤتينا ما هو أطيب، ويجنينا ما هو أشهى، فلنلقح عقولنا ولنطعمها بما عند الغرب، ليعود أوفر إنتاجًا وأحلى جنى، ونحن آدميون، والشجر نبات، ولكن سُنَّة الحياة واحدة، وقانونها لا يختلف، وهو واحد في كل مظاهر الحياة على السواء وما يصير به النبات أقوى وأزكى، يصير بمثله الحيوان — ونحن منه — أقدر على معاناة الحياة وأصلح لها وأنجب، وليس مما يَصِحُّ في الأفهام أن نكون في القرن العشرين، ونقنع بأن نعيش بعقول القرون الخالية، وأخلق بهذا الكسل أن يحيلنا خلقًا متخلفًا من الأزمنة البائدة، وأن يجعلنا غير صالحين للزمان الذي خرجنا فيه. وأنا أعرف أن في هذا مشقة عظيمة، ولكن الثواب على قدرها، والحياة نفسها لا متعة ولا نزهة، بل كدٌّ ونضال وكفاح، وما يبلغ المرء في دنياه غاية أو يدرك شيئًا إلا بالكفاح وعرق الجبين المتفصِّد. فلماذا نستثني الأدب ونراه أهون شأنًا وأيسر مطلبًا من أن يحتاج إلى عناية؟

وليعذرني القراء الأفاضل إذا رأوني ألح على شبابنا أن يعكفوا على التحصيل ويجدوا فيه ويشقوا أيضًا. فقد رأيت شبابًا كثيرين في مصر أكبر ظني أن

لهم أنداذاً في غيرها يستنقلون الطلب، ويستطيلون مدته، ويستكثرون الجهد الذي يقتضيه، ويستخفون بالأمر كله ويحاولون أن يرقوا بغير سلم، وأن يبلغوا الغاية بدون أداة أو وسيلة، فلا يأنون إلاّ بأعنتِ الغثائنة وأسخف السخف، ثم يروحون يتذمرون ويجأرون بالشكوى ويزعمون أنهم مغبونون مغموطو الأقدار، وأن الشيوخ يأخذون عليهم متوجّههم ويعترضون سبيلهم حسداً، إلى آخر هذا الهراء.

ونقول لهم: إن كل علم وفن مثل الطب والهندسة والتصوير والموسيقى، إلى آخر ذلك يحتاج إلى درس طويل وتحصيل وافٍ؛ فإن الملكة وحدها لا تكفي، والاستعداد بمجرد لا غناء له، ما لم تؤازره المعرفة الصحيحة. فلماذا يعدون الأدب بدعاً يروونه مما يمكن الاستغناء فيه عن الآلة والأداة؟ فلا يقتنعون - أو على الأصح - لا يستطيعون أن يروضوا أنفسهم ويوطنوها على احتمال المشقة.

وأرثر أن أكون صريحاً فأقول: إن هذا تطرّف لا يعجبني، وكسل لا أراه بشيراً بخير فيحسن أن أورد طائفة من الأمثلة تبين أي مشقة احتملنا، وأي عناء صبرنا عليه وأي جهد تكلفناه في حادثتنا وصدر حياتنا قبل أن نتطلع إلى منازل الأدباء.

وقبل ذلك أقول: إن ممّا نفعني وأغراني برياضة نفسي على التشدد والتجلد كلمة قرأتها ومنظر رأيتّه. فأما الكلمة فقول كوبيت في كتابه « نصيحة إلى الشبان »: إن على الشاب إذا أراد أن يكون رجلاً كاملاً لا نصف رجل أن يخلق ذقنه كل صباح بالماء النارد في الشتاء، وجو إنجلترا من أفسى الأجواء.

فقلت لنفسي: إن مصر جوها معتدل، فأنا أولى بهذه النصيحة وأقدر على العمل بها. وتوخيت بعد ذلك أن لا أستعمل إلا الماء البارد في كل حال فنفعني هذا وقواني على احتمال المؤثرات الجوية وإن كان بدني خرعاً.

وأما المنظر، فكان شاباً من العمال راقداً على الحجارة في وقدة الظهر وشمس الصيف تضربه، وكنت يومئذٍ في السابعة عشرة من عمري، فقلت لنفسى: أنا أتململ لأن وسادتي ليست محشوة بريش النعام، وسجادتي ليست من صنعة العجم، وهذا الغلام ينام على الحجارة ولا يتأفف ولا يشكو ولا تمنعه خشونة المضجع أن ينام ملء جفنيه ... أما والله لا اتخذت بعد اليوم شيئاً وثيراً! وما زلت إلى اليوم أؤثر الخشن على الرقيق، وليس في بيتي كرسي مريح أو فراش لين، لأنني أخجل أن أكون مترفاً.

ورضت نفسي على الجلد، فاتفق في أول عهدي بدرس الأدب أن وقعت في يدي نسخة من ديوان « الشريف الرضي » مطبوعة في الهند، ليس فيها بيت واحد يسلم من التحريف، فما استطعت أن أفهم شيئاً، وكدت أياس، ولكنني تشددت وأقبلت عليه أعالج تصحيحه، وقضيت في ذلك قرابة عامين وأنا أوفق قليلاً وأخفق كثيراً، حتى هداني الله إلى ديوانه المطبوع في بيروت، وهو أصح وأسلم من الخطأ، وإن كان لا يخلو منه، فتشهدت واسترحت.

وحبب ابن الرومي إليّ ما قرأته له مبعثراً في كتب شتى، فطلبت ديوانه، فلم أجد إلاً مخطوطاً - أعوذ بالله منه - في دار الكتب المصرية، وكان فيها مخطوطان آخران، ولكني لم أعط إلا أسوأ الثلاثة وشرهما، فاستنسخته وعكفت عليه سنوات طويلات المدد أحاول التصحيح والضبط، فلم أبلغ من ذلك ما أريد، ولكنني بدلت غاية ما يدخل في الوسع.

وكان من أول ما اقنيت: الأغاني طبع الساسي، وهي نسخة محشوة بالغلط ففككت الأجزاء « ملازم »، وجعلت أحمل الملازم معي واحدة واحدة إلى دار الكتب

في أوقات فراغي، وأراجع النصوص نصًا نصًا، وبيئًا بيئًا، وأدون التصحيح أو التكميلات على ورق أبيض أعدته لذلك، وصرت ألصق الورق المكتوب بين الصفحات المطبوعة، حتى إذا إنتهيت من جزء جلده وانتقلت إلى ما يليه، وهكذا حتى أتمت الكتاب كله، فصار ضعفي حجمه الأصلي، وحدث لسوء حظي في أيام الحرب الماضية أن رقت حالي فجأة، واحتجت إلى مال، وأنا امرؤ ربّتي أُمي — رحمها الله — على الاعتماد على النفس والاستغناء عن الناس، وبغضت إليّ الاستدانة وكلّ ضروب الاستعانة بالغير؛ فلم أجد لي حيلة إلا أن أبيع ما اقتنيت من كتب، ورأى بعضهم عندي نسخة الأغاني هذه، فألحف في طلبها، فأبيت أن أبيعها، فلم يزلّ يزيد في الثمن ويرتفع به حتى أغراني، وما كاد يخرج بها حتى طار عقلي وندمت أشد الندم؛ فإنها ثمرة تعبي سبع سنوات، ولكن أُمي قامت بي إلى السكينة وقالت لي، « أأست قد قرأتها؟ انتهينا إذن ولا داعي للأسف! » فجعلت بعد ذلك أعزي نفسي بقولي: إن فائدة القراءة كفائدة الطعام، والمرء يأكل ليصح بدنه ولو أني نسيت اليوم ما أكلت في أمسي، لما منع ذلك أن الفائدة قد حصلت، وأن جسمي انتفع بما طعمت وكذلك العقل: يقرأ المرء ليستفيد علمًا ويقوي مداركه وينمي ملكاته، ولا يمنع حصول الفائدة أنه نسي ما قرأ أو أن الكتاب غير موجود.

وحسي هذه الأمثلة القليلة، والحقيقة أننا أعمَلِينَا الحياة لنحياها، لا لننعم بها أو نُسعد، ومعنى أن نحيا أن نعمل، ومؤدى العمل أن نكدح ونتعب، والأدب مطلب كسائر المطالب له وسائله، فلا معدى عن العناء في سبيله.

من أنا ؟

نشر في جريدة : أخبار اليوم بتاريخ : ديسمبر ١٩٤٥

سألت نفسي مرة: ماذا أنا؟

وأني لأدري أنني صحفي، وأني معدود من رجال هذه المهنة، ولكنني لست كذلك في الحقيقة، وأي صحفي هذا الذي لا يعرف دواوين الحكومة أين هي أو بعضها علي الأقل، ولا يطيب له أن يلقي الناس، ولا يُعنى بتقصي الأخبار ولا يُنقل عليه أن يبيت جاهلاً بما هو حادث في الدنيا، ومبدؤ الذي لا ينزل أو يجيد عنه هو « خبر بفلوس، بكره يبقى بلاش »؟ كلا، لست صحفياً إلا علي التسامح وإنما أنا رجل كاتب، أو أديب إذا شئت. فهبني أردت أن تكون لي بطاقة تذكر فيها مهنتي الحقيقية أو أن أثبتها في جواز سفري، فماذا أكتب؟ أقول إني « كاتب »؟ هل يكفي هذا في تعريف من يطلع علي بطاقتي أو جوازني أني رجل صناعته الكتابة؟ أولاً يُخشى أن يتوهم أني « كاتب » في دكان أو نحوه؟ أم أقول « أديب »؟ ولكن هذه صفة لا صناعة؛ فقد يكون الرجل أديباً ولا يكتب شيئاً، أم أقول إني « مؤلف » فإنني أترجم أيضاً، وليس عملي في الترجمة بدون عملي في التأليف. حدثت بهذا « رصيفاً » أديباً؛ فقال إنه وقع في مثل هذه الحيرة يوم أراد السفر إلي خارج مصر بعد أن اعتزل وظيفته الحكومية، واحتاح أن يجدد جواز سفره أو يغيره، فلم يدر كيف يصف مهنته: « موظف سابق »؟ من « الأعيان »؟ من « أرباب المعاشات »؟ كاتب؟ أديب؟ مؤلف؟ روائي؟ وأخيراً حل العقدة هو وموظف الجوازات بإيثار كلمة "المؤلف".

وغريب ولا شك أن يحتار كاتب أديب في وصف مهنته والتعريف بنفسه وإنها لحيرة تريك أن «الأديب» ليست له منزلة اجتماعية مقررّة معترف بها كالتاجر، أو الميكانيكي، أو الجزار، وأكبر الظن أن كثيرين من الناس لا يزالون يعتقدون أن الأدب والتسول وحياة التطفيل مترادفات، علي نحو ما كان مألوفًا منذ بضع عشرات من السنين. أيام كان الشاعر يعيش على ما يوجد به عليه أهل الخير من ممدوحيه أو الجبناء ممن يهجوهم.

وقد غير زمان كان الناس فيه يعدون الصحفي متسولًا، وبهذه العين كان الناس ينظرون إلي معظم الصحفيين، فكان إذا أقبل صحفي علي جماعة استعاذوا بالله في سرهم، وراحوا يفكرون هل ينقدونه «شلنا» أو حسبه « نصف فرنك »؟ أم تراه يرجي أن يكتفي بفنجان من القهوة يشربه ويتوكل علي الله ويريهم قفاه؟ وكان الخوف من طول لسان الصحفي - لا احترام عمله وتقدير مهمته - هو الباعث الأكبر للناس علي إظهار التوقير له اتقاء لشره، ثم ارتقت الصحافة ودخل فيها لفيف من أهل الفضل وذوي المقامات المحوطة فرفعوا من شأنها وأعلوا قدرها، حتى لقد أصبحت تسمي نفسها « صاحبة الجلالة » و"السلطة الرابعة".

أما الأديب فلا يزال مركزه الاجتماعي قلنا، وصفته يشاركه فيها كل من هبّ ودبّ وسواد الناس يختلط عليهم الأمر حين تقول لهم إن فلانًا أديب، ولعل منهم من يتوهمه من جماعة الشعراء الذين كانوا قبل ربع قرن يقعدون علي دكة عالية في المقاهي ومعهم الرباية، ويروون للناس قصة أبي زيد، أو عنتر، أو سيف « اليزل » كما تسميه العامة. ولعلّ منهم من يتذكر حين يسمع بأديب أولئك الذين كانوا يسيرون

في الشوارع يُسْتَجْدُونَ، وقد وضعوا علي رءوسهم طرابيش واسعة طويلة الأزرار تختفي فيها الأذان، ثم يصفع بعضهم بعضًا وهم ينشدون ما عندهم من هزل فارغ ويرددون كلمة « كعكم » إن صح أن تسمى هذه كلمة، ويهزون رءوسهم بعنف فيدور « الرز » في الهواء. ألم يكن هؤلاء يدعون « الأدبائية »؟

ويخطر لك أن تبعث برسالة إلي تلميذ صغير فنكتب له في العنوان: « حضرة الأديب الفاضل » وإن كان ما يزال يتنجس، كأن من العيب في حقه أو الحطة له والغض من قدره أن تقول: « حضرة الطالب أو التلميذ »، وتكون أنت أديبًا له شهرة في مصر والأقطار العربية كلها شرقًا وغربًا، ويرى مركز البوليس أن يدعوك ليسألك عن شيء، فنلتى منه دعوة هي عبارة عن قصاصة كتب عليها: « مطلوب حضور النفر فلان » فإذا بدا له أن يتأدب معك أسقط كلمة « النفر » واكتفى باسمك مجردًا.

ولا نرى أحدًا بذكر طيبًا إلا مقرونًا بلفظ الدكتور، أو محاميًا أو مدرسًا إلا حرص علي أن يقول الميتر أو « الأستاذ » وهكذا، إلا الأديب والكاتب فإن الناس يبخلون عليه بصفته الحقيقية، أو لعلهم لا يبخلون بها وإنما يستصغرونها ويستقلونها، ويرون غيرها أدل علي التكريم.

تري لو أراد في زماننا هذا أديب لا عمل له غير الأدب أن يتزوج، وتقدم إلي أسرة يطلب مصاهرتها وسألوه عن عمله أو صناعته. فقال لهم إنه « أديب » فماذا يكون رأيهم فيه؟ وظنهم به؟ أما أنا فأرجح أن يتوهموه عاطلًا ويحسبوه قد جاء يطلب مصاهرتهم ليسرق مالهم.

الأدب والمدرسة

نشر في : مجلة الرسالة- بتاريخ : يناير ١٩٣٩

هل كانت علومك المدرسية ذات أثر فعال في إظهار مواهبك الأدبية؟

سؤال انتقل به صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم إلى « برج العاجي » من مجلة أدبية فرنسية ألقته على طائفة من أدباء بلادها؛ فكان جواب أحدهم: « يخيل إليّ أن الغباء وفقر الذهن وبلادة الشعور وضعف التصور وانعدام الخيال مواد مقررة رسميًا في المناهج المدرسية.

ويقول الصديق فيما عتب على هذا الجواب: « ولو سئلت لما خرجت إجابتي عن هذا المعنى. وكنا نتحدث في هذا قبل أن أقرأه في البرج العاجي من الرسالة، قصصت على الصديق بعض ما أذكر من عهد المدرسة، ووصفت له أساتذتي في اللغتين العربية والإنجليزية، وتوحيّيت الإنصاف وتحريت الحق، فسألني أن أكتب هذا وأنشره، فوعدت أن أفعل. وقد بدأت أكتب وفي نيتي أن أبر بالوعد، ولكن بعد أن بلغت هذا الموضع أراني أميل إلى الإخلاف؛ فما أحب أن أسيء إلى أحد بلا موجب ويغير حق، أو أن أرمي بالجحود والكفران. وأكبر الظن أن الذين علموني نسوا - أو هم لا يدرون - أنني كنت من تلاميذهم، فلو قلت فيهم ما قال مالك في الخمر ما عرفوا أنهم هم المعنيون، ولو أنيت عليهم لتعجبوا وراحوا ينسألون:

« ترى من كانوا معلميه؟ » ولعل أكثرهم قد عاد إلى التراب الذي جُبل منه ولكني مع ذلك لا أراني أقدر أن أضعهم في الميزان إلا إذا وضعت نفسي معهم.

أنا أيضًا كنت تلميذًا ثم مدرسًا لسوء الحظ، وكانت ميزتي المحتمة في أيام التلمذة: « الغباء وفقر الذهن وضعف التصور » يضاف إليها الفقر، وكان يبلغ من فاقتي في ذلك الزمان أن كنت أحتاج إلى القميص الأبيض لألبسه مع البذلة

فلا نجد ثمنه، فتعتمد أمي المسكينة إلى ما خلف أبي من قمصان فتصلحها فتضيق من هنا وتقتصر من هناك، ولكن الياقة أو البنيقة كانت تعيدها فتلبسنيها كما هي ولو جعلت لي منها حزاماً لكان هذا أصلح؛ فتصور هذا الطوق العظيم على عنقي وكنت إذ أمشي بها لا أدري ماذا أصنع وكيف أبلغ المدرسة؛ لأنني كنت أحتاج إلى كلتا يدي لأهوي بجانب الطوق عن أذني، ولكنني محتاج أيضاً إلى حمل الكتب والكراسات فكيف أصنع وليس لي غير يدين اثنتين.

ولا أدري كيف نجوت من العمى؛ فقد كانت عيناى ترمدان فلا تعأبي المدرسة، نعم كان لها طبيب يحضر كل يوم لعيادة المرضى مِنّا، فكنا إذا سمعنا ناقوسه نجري إليه فيصفا أمامه ولا يجشم نفسه عناء السؤال أو الفحص، بل يقول وهو يشير إلى كل واحد منا على الترتيب: « شربة، لسخة، قطرة » فيتفق أن يكون من حظك « القطرة » وشكواك أن رجلك مهیضة، أو اللسخة وبك زكام، وكنت أذهب إليه لعلاج عيني ولكنني كنت أخرج مأموراً بالشربة أو اللسخة ولا أخرج قطاً بالقطرة أما في البيت فكان كل ما أتداوى به من الرمد الماء البارد.

وأية غبائي وبلادتي أنني كنت في كل فرقة الأخير - حتى مقعدي كان الأخير في الحجرة - وكنت لصغر جسمي وقمائي لا أكاد أبدو للمدرّس، فهو لا يراني ولا يحس بوجودي ولا يعنى بي، وأنا أغتنم هذه الفرصة فأتشاغل عن درسه بما يخطر لي من العبث، وكان جاري في بعض الفرق ضخم الجسم كأنه الغل الصغير وكان لجسامته يحتاج حين يقعد أن يتكى على الدرج نكلتا يديه، وكانت عادته أن يمسح وجهه بكفيه بعد ذلك ويتمتم بقوله: « خيبة الله عليكم »، يعني زملاءه التلامذة لأنهم كانوا لا يكفون عن ركوبه بالعبث، فاشتريت مرة قليلاً مما يسمى « بوردرة

العفريت» ونثرتها على الدرج فاتكأ عليه ومسح وجهه، ثم ذهب يحك كفيه وخديه حتى دمي وجهه وانقطع عن المدرسة أياماً حتى شفي؛ ففطن المدرسون إلى وجودي بعد ذلك، وصرت أُنهمُّ بكل ما يحدث في المدرسة ولو وقع في فرقة غير فرقتي؛ فأنا عندهم المحرض أو الموسوس بالعبث إذا لم أكن أنا الفاعل.

أما الدروس فما كنت أفهم منها شيئاً، ولم يكن هذا ذنب المعلمين فما كانوا يقصرون في الشرح والبيان، ولكني أنا كنت لا أستطيع أن أنتفع بذلك؛ لأنني أكون قاعدًا على ركبتي فوق البلاط؛ محقَابًا لي على ما لم أصنع في الغالب، أو واقفًا ووجهي إلى الحائط، أو مطرودًا من الحجرة كلها. وكيف يمكن بالله أن يفهم شيئاً من لا يزال هكذا، ركبته على الأرض أو أنفه على الجدار أو هو يتمشى في الفناء أو الدهليز...

وكان أرق المدرسين معي وأظرفهم وألطفهم على العموم إنجليزي أنيق. كان إذا رأي - وما أكثر ما كان يُعْضِي - أخرج على النظام يدعوني أن أقف ويطلب مني أن أتهدى كلمة «مجنون» أو «شقي» وغير ذلك مما يجري هذا المجرى، ويكتفي من العقاب بهذا.

وكان لنا معلم للغة العربية غريب الأمر، كانت حجرتنا مجاورة لحجرة الناظر الإنجليزي، فكان هذا المعلم يفرغ من إلقاء الدرس وشرحه ومن التطبيق أيضًا في خمس دقائق على الأكثر، ثم يقول: «أغلقوا النوافذ كلها» فنفعل، ثم يأخذ في حديث سياسي يذم فيه عهد إسماعيل ويلعن فيه أيام توفيق ويثني على الإنجليز أطيب الثناء، ولم يَكُنْ أعجب من صنيعه هذا إلا إغلاقه النوافذ ليوهمنا أن الناظر الإنجليزي يسوءه أن يعلم أنه يثني على قومه ... وكنا نناقشه ونجادله ونخالفه

فيوسع صدره ويروح يحاوزنا ويذاورنا ليقنعنا بأن ما خرب من نفسه عامر، وكانت تلك أيام مصطفى كامل وكنا نقرأ «لواء» ونسمع خطبه. وأحسب أنني لا أبالغ إذا قلت إنني تلميت دروسي الأولى في اللغة العربية من اللواء والمؤيد لا من معلمي في المدارس، وتصور أن منهم معلماً كان يكلفنا أن نحفظ كتاب النحو عن ظهر قلب... بل تصور أنه كان يثني على التلميذ الذي يقول له في جواب سؤاله عن الفعل اللازم «ما هو»: «هو ما ليس كذلك»، كما في الكتاب بالحرف الواحد ولم أستطيع قط في حياتي أن أحفظ شيئاً عن ظهر قلب إلا إذا جاء هذا عفواً وعن غير قصد، فكانت درجتي في اللغة العربية هي الصفراً دائماً.

وكل ما حفظته من الشعر العربي في المدرسة قصائد قليلة، مثل:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
وما إليها، وحتى هذه يخيل إلي أنني ما حفظتها إلا فيما بعد لما كبرت، ولكني أذكر على كل حال أن المدرس الذي كان يعلق النوافذ ويهجو المصريين ويمدح الإنجليز هو الذي كان يتقاضا أن نحفظها: وقد يكون هذا اتفاقاً محضاً.

وكان أساتذتنا في اللغة الإنجليزية على عكس ذلك، فكانوا يرشدوننا ويساعدوننا ويقرضوننا الكتب إذا أنسوا منا ميلاً إلى القراءة، ويصحبوننا إلى مكتبة المدرسة، ويتخبرون لنا ما يوافقنا وما يسعنا أن نفهمه، ولا يدخلون علينا بالفهم والشرح حتى في أوقات الفراغ إذا طلبنا منهم ذلك، ولكن بعضهم كان عجيب الشذوذ، أذكر منهم واحداً كان يعلمنا الجغرافيا الاقتصادية، فكان يكتب على السبورة رقماً يبلغ من طوله أن بقيته تجيء على الجدارا وكان هذا مبلغ عنه

بهذه الجغرافيا، ومنهم من كان يعطينا الدرجات على الخط وجودته ولا يبالي
أصبنا أم أخطأنا في الموضوع، فأجودنا خطأً أعلننا درجة ولو كان أجهل مني.
أظن أن المدرسة لا تستطيع أن تعلم الأدب، وكل ما يسعها ويجوز أن يُطلب
منها هو الترغيب والتوجيه والتسديد، وحسبها أن توفّق في هذا، وأكاد أقول حسبها
ألا تنفر من الأدب وتزهّد فيه.

السعادة لا توهب

نشر في جريدة أخبار اليوم - بتاريخ مارس ١٩٤٧

ضحكت حين تلقيت رسالةً معنونةً هكذا: «الفيلسوف الكبير...» ولبثت لحظة محجماً عن فضها مخافة أن أقرأ فيها ما هو شر من ذلك، وإذا كانت الفاتحة أنني «فيلسوف» و«كبير» أيضاً — ألا ليت من يكتبون إليّ يروني!! وإن كنت لا أحب أن يريهم الله سوءاً — فما ظنك بالخاتمة؟ وقلت وأنا أفتح الطرف بعد طول التردد: «إذا كنت أنا فيلسوفاً، فالله يرحم مصر!» وتساءلت وأنا أهز رأسي أسفاً: متى يعتدل الميزان في بلدنا المسكين؟ حتى متى نسرف ونشتط في كل شيء: في الرضى والسخط، وفي المدح والذم، والحب والبغض؟

وتوكلت على الله. وقرأت الرسالة، فجف وجيبي، وأحسست أن شعلة ساطعة ذات لهيب شديد وزفير قوي تستطير فيه. فقد ردتني بعنف إلى عهد الطفولة والشباب الذي قطعته «وثباً»، ورفعت أمام عيني صوراً كنت أتوهم أنني طويتها أو أدريت وجهها إلى الحائط.

وتلوت الرسالة مرة، وأخرى، وثالثة، ورابعة؛ فقد وجدت فيها عزاء. أنا إذن لست الوحيد الذي عانى ويعانى ما شاء الله أن يكتب له في لوجه! فهذه فتاة في سن السادسة والعشرين تكتب إليّ، فنقول:

ولو سألتني عن سر انطوائي على نفسي لحررت ولم أدر ماذا أجيب... غير أنني أنكر طفولة غير سعيدة، وتعلباً بدأ مبكراً وسار سيراً حثيثاً، لينقطع فجأة وأنا أشد ما أكون رغبة في مواصلته، وأحوالاً مالية مرتبكة أدت إلى ذلك الانقطاع وأمالاً كباراً عقدتها على ذلك التعليم انهارت كأنها كوم من الرمل، واضطراري

لمزاولة عمل بسيط ينافي ما كنت أرغب فيه وأتطلع إليه، مع قوم أجزل الله لهم حظهم من تفاهة الخلق، وأصابني منهم إبداء وإيلام وتجريح، ولقد حاولت كثيرًا أن أضحك وأن أتلقى ما تجيء به الأيام بالسخر، ولكن كلمة تبدر أو إشارة تصدر تردني إلى الحقيقة - حقيقة نفسي الموجعة - وعبئًا حاولت أن أنسى أو أتناسى ... ولقد وهبني الله قبسًا من السعادة في شخص صديقة عرفتتها، سيدة عاقلة فاضلة مهذبة، حباها الله ذكاء نادرًا وزودها العلم بثقافة عالية. وجمعت بين دقيق الشمائل وحميدها، وقوة العزم ومضائه، ولكن الأيام باعدت بيننا، ففقدت بفراقها هدوءًا وجدته في ظلها، وحرمتُ سكينه النفس، وما كنت أفيدته من علمها وفضلها وأدبها وتهذيبها ... والآن أراني قد أصبحت على شفا انهيار عصبي لا يعلم نتيجته إلا الله ... فأنا أكتب إليك راجية أن أجد عندك طيبًا لما أعانيه من جراء الكبت والانطواء على النفس، من شتى الأحاسيس والانفعالات.

أنا أيضًا عانيت هذا كله وصليت بحر نار لم أكن - علم الله - من جناتها؛ فافتقرت - بعد يسر - في حداتي، وكاد ينقطع تعليمي لولا عناد أمي وإياؤها كل الإباء أن أخرج من المدرسة، وجاء يوم يابس تناهي فيه سوء الحال، فاقترح قريب لنا - من أدنى ذوي قربانا - أن نقدم طلبًا بإعفائي من نفقات التعليم؛ فقد كان هذا هو كل ما تحرص عليه أمي، أما ما عداه فأمره مما نحتمله فيما بيننا وبين أنفسنا، وكتب الطلب، وذهب به ثم عاد يقول - أي والله، غفر الله له،

إن الناظر يطلب رشوة! وكان الناظر من أنزه الناس وأعفهم يدًا ولسانًا وقلبًا وريعت أمي؛ فقد كان أبي محاميًا، فتعلمت منه أشياء وأبت كل الإباء، وأوجز فأقول إنها دفعت الرشوة إلى قريبنا لا إلى الناظر المظلوم! ويعد شهر وزيادة جاء

القريب الفاضل سامحه الله يقول إن الورارة أعفتني من نصف المصروفات فقط فقلنا؛ خيرًا على كل حال، وكانت « المصروفات » ستة جنيهات في العام على ثلاثة أقساط فاعطتني أمي جنيهاً من ذهب وقرشين ونصف قرش، وألهمني الله أن أتحرز وتصور طفلاً في العاشرة يتنبه الى وجوب التحرز - فلم أذهب إلى « الصراف » بل قصدت إلى الناظر في حجرته، ودفعت إليه الجنيه والقروش، فاستغرب فلما قصصت عليه ما أنبأنا به القريب الفاضل، كاد يبكي، فقد كان جاراً وصديقاً لأبي، وقال إنه يأسف؛ فقد رفضت الوزارة الطلب، وأبى المجانية، وأمهلني ما شئت! فعرفنا أن قريبنا « نصب » علينا وهو في يسر ونحن نتصور

وكانت الحياة كلها في ذلك العهد كبتاً في كبت وانطواءً تاماً على النفس ولا حاجة بي إلى شرح ذلك وبيان أسبابه؛ فإنه هو الذي كان لا مفر منه مع الفاقة، وفي الأحوال الاجتماعية التي كانت يومئذٍ مقررة سائدة. وعكفت على القراءة - وماذا كان هناك غيرها - حتى أضرت ذلك بصحتي وكاد يطفى نور عينيّ ولكنني كنت قد اعتدت الاعتماد على النفس، والاستقلال في التفكير والتصرف وأصابني النوراستينيا، فلجأت إلى الأطباء فكادوا يطيرون لي ما بقي من عقلي فتوكلت على الله مرة أخرى ... وعالجت نفسي بنفسي، أو بذلت كل ما يدخل في طاقتي من جهد. وما زالني تلف الأعصاب، ولكنني أغالب ذلك بالإرادة، ورياضة النفس، ومواجهة الحقائق لا الهروب منها، وتلقي ما تجيء به الأيام بأعظم ما يسعني من التهورين، وبإنزال كل شيء منزلته دون مغالاة، ويقولون نفسي إن هذه هي الدنيا، وأن الحياة هكذا أبداً - كانت كذلك وستظل كذلك - والناس هم الناس فيهم الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، وكل شيء في الحياة قسم وحظوظ وأرزاق

وفي وسع الإنسان أن يجمل الحياة. والسعادة ليست هبة تأتيه من الخارج، وإنما هي ثمرة لسكينة النفس الصحيحة الإدراك، ولا داعي على كل حال للتهويل على النفس؛ فإن ما لا يدرك في صورة ما، يدرك في صورة أخرى، وفي مقدور كل امرئ أن ينال ما حُرِّمَهُ، وأن يفور بما ينبغي أو يتلهف عليه، ولو على وجه غير الذي تعذر واتقاء الكبت أو يجب ما يجب؛ فإن عواقبه وخيمة، وما من أحد يعدم - إذا عني بالتماس الوسيلة - مخرجًا من الكبت- وأظن هذا جوابًا كافيًا، وإن كان غير مباشر.

الموت

نشر في: جريدة السياسة الأسبوعية، بتاريخ نوفمبر ١٩٣٢

رأيت الموت في صورة الشنع، وعرفت وقعه، ولذع مصابه، وهول معناه، وأنا صبي أتَهَجَّى وأحسب الحياة كرة تُضرب وحلوى تؤكل، وقد مات أبي على عيني وكان مهول الحلم، صليب الإرادة، قليل التشكي، فلما حضرته الوفاة نادى أمي وأمرها أن تُرُقده على القبلة، ثم ابتسم لي ودعاني أن أقبله، وفاضت روحه في عناقى حتى لخلته قد نام، ثم اختفى من بيننا؛ فغاب الخير كله. وشهدت جدتي لأبي وهي في سياق النزح أربعة أيام بلياليها، وكانت سدّها عالية، وأحسبها أُرْبِتْ على التسعين إلا أنها كانت قوية، فلما جاء أجلها جعلت تفهق، ولا تكف عن ذلك حتى اختارها الله، وماتت ابنة لي بين ذراعي، وظلت حشرجتها ثلاث ساعات وأنا أنظر إلى وجهها الصغير وأراعي عبت الموت به وتشويهه له، وأرى كيف يخبر ضياء الناظرين وتصبح العين كالزجاجة. وقضت زوجتي الأولى ويدي على رسغها وعينها تحرق في وجهي. ودمها ينزف، والموت يشيع فيها شيئاً فشيئاً، وأخيراً ماتت أمي فشهدت أعنف عراك بين الحياة والموت، أو بين إرادة الحياة وعدوان الفناء وأحسب القارئ يعرف ماذا يصنع الرجل إذا أبقى في الماء وكان لا يعرف السباحة، وكيف يروح يجاهد ويخبط بيديه ويضرب برجليه ويدفع برأسه، ويحاول أن يقتنص بضعة أنفاس من فوق الماء يستعين بها على الصبر والمقاومة، كذلك كانت تفعل أول ما أصابتها الذبحة، ولبثت ثمانية أيام تكافح في كل ساعة منها صورة جديدة مما يكرُّ الموت به عليها ليهزمها أو على الأصح ليخنقها، حتى لقد

كان يكبر في وهمي أحياناً أن هناك يداً تقبض على عنقها لتحبس أنفاسها، وهي تعالج الفكك والتملص، حتى كنت وأسلمت الروح، ومن ذا الذي لا يهزمه الموت؟

هذا الموت الذي يصنع بنا ذلك ماذا هو؟ هو في نظر الأحياء غول موفق، يعدو على الرضيع والصبي والشاب والشيخ، ولا يُبقي ولا يذر، ولا يحترم قوة، ولا يدرك على الضعف عطفاً، ولا يُكبر علماً، ولا يُقدّر أدباً، ولا يرقّ لحسن، ولا تصده تقوى ولا تردعه سذاجة، ولا تغلبه حيلة، ولا يُجدي معه مكر، وأهول ما يروع المرء منه ما يتصوره من فعله، ومن منافاته ومحوه لمعنى الحياة. هذا إنسان مُحسّ مدرك يروح ويجيء ويأكل ويشرب ويضحك، يلعب ويخاف ويرجو، ويحزن ويفرح، ويطلع ويزهد، ويشقى وينعم، ويقعد أو يسعى، ويخيب أو يفون، ويفتح له التفكير ميادين لا آخر لها يُعرف، ويكاد أحياناً يُحكِّق فوق الحياة ويجوز حدودها ويتصل بروح الكون، ويلهم ما لا ينفع فيه تفكّر أو يهدي إليه تدبير. هذا الإنسان يمسي جيفة تسد الأنوف من نتنها، جيفة يشق على المرء أن ينظر إلى بلاها، أو أن يحتمل ريحها الخبيثة، وينضب كل ما كان من ماء حياة مستجير ومن سحر، وينعدم ما كان من حس وإدراك، وتجف الأمانى، ويقف العقل، ويتعطل الخيال، ولا يبقى إلا شيء من الإكرام له، ومن الخير للناس أن تدفنه عن العيون.

ولكن هذه المقابلة بين الحياة والموت قلّما تكون في شباب العمر؛ لأن قوة الحياة تكون أزخروعباب تيارها يكون أطمى من أن يتجه خاطر إلى ركود الموت، والتفكير في الموت يجيء مع الإحساس بأن فيض الحياة أخذ يضعف وأن نبعها لم يعد كما كان ثرياً؛ فيستيقظ الشعور بالذات يقظة المُحسّ بالخطر عليها، ويكذب من يقول لك إن خاطر الموت لا يجري له في بال، وإن فكرته

لا تروعه؛ فإن غريزة حفظ الذات مركوزة في الطباع، وهي تقوى على الأيام في الإنسان وتزداد تنبهاً؛ إذ كانت حياة الإنسان كلها تعرضاً واستهدافاً للمخاطر والتجربة والمعاناة يشحذان هذه الغريزة، والموت هو الخطر الأكبر على الحياة فيما نحس كل مخلوق، حتى الحيوان يجزع منه بفطرته السانحة، فغير مقبول من امرئ أن يقول إن خاطر الموت حسن الوقع في نفسه، ولكن من الممكن أن يقول الإنسان إنه راضٍ نفسه على السكون إليه؛ إذ كان لا منجى منه ولا متحول عنه.

على أن خاطر قد ينتهي إلى الموت ويطول تفكيره فيه، حتى في أيام الشباب الجامح، ولقد عانيت آلام هذا التفكير وتغيبه في صدر حياتي، وكان يفزعني ذكر الموت حتى لقد كنت أعود بأهلي وأحيط نفسي بأذرعهم، كأنما كنت أتوهم أن في وسعهم أن يحموني من أن يخطفني، والعجيب أنني كنت أحس بهذه الحماية أوقل إن إحساسي لم يكن أن في وجودهم حولي حماية لي، بل بأن هذا الوجود فيه مقدار من الإيناس يردُّ بعض الطمأنينة إلى النفس، ومع الطمأنينة يعود إلى المرء شيء من اتزان الأعصاب، ومتى اتزنت الأعصاب خفَّ عن النفس كرب الخوف والجزع، وليس الجزع من الموت جيناً، وإنما هو نقص في اتزان الأعصاب يتعدَّر معه التفكير الهادئ الرزين الذي يستطيع وحده المحافظة على التناسب الحقيقي بين الأشياء.

ولفرط جزعي من الموت في شبابي، وهول ما قاسيت من آلام هذا الجزع قلت أتداوى بالداء، فنقلت سكني إلى حيث أجدات الموتى، وحيث كل قبر يصير كما يقول المعري - قبراً مراراً ضاحكاً من تزاحم الأضداد؛ لتألف نفسي فكرة الموت ونسكن إليها! وتتبلد بذلك، والعادة تلبيد، والطرق عديدة إلى حيث سكنت، ولكني

كنت أوتر المشي بين المقابر في النهار وفي فحمة الظلام، وأتعمد ذلك وأحمل على نفسي به، حتى برئت من هذا الجزع أو على الأصح تبلدت وسكنت وفقد خاطر الموت لذعه، وقد رويت للقارئ من قبل كيف وقعت مرة في قبر متهدم عانقتني فيه جثة، وأحرى بهذه التجاريب أن تشفي، وأن تفرغ على النفس القدر الكافي الواقى من البلادة أو الاعتدال في الإحساس، وقد أصبحت من البلادة بحيث لا يبذني في ذلك دافنو الموتى أنفسهم.

ولو سئلت الحياة عن رأيها في الموت لخالفت الإنسان، والإنسان يبغى البقاء والدوام، ولو بقي لفقدت الحياة غايتها وبطل فعل عواملها، بل يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك أن دوام الحياة لمخلوقات بأعيانها يعصى على « الحياة » نفسها وينفيها، فلا تعود هناك حياة لها سنن، وإنما يكون هناك وجود هو عبث محض وقد فصلنا ذلك في « حصاد الهشيم » ولعلنا نعود إليه في فرصة أخرى، والموت ليس فناء، ولكنما هو طورٌ من أطوار الحياة، والذي يموت يخدم « الحياة » ويغذي عناصرها، كما يخدمها من وجوده أخرى، وهو حي يرزق، وليست خدمة الميت « للحياة » بأقل من خدمة الحي، ولا هذه الأخيرة أولى أو أحق بالرعاية، والقانون واحد للأحياء وللموتى، وليس للفرد قيمة خاصة، وكلّ قيمته عند نفسه لا في نظر الحياة، وهي قيمة مبعثها الشعور بالذات، ولو فقد المرء شعوره بذاته لفقد تبعاً لذلك ما ينحل نفسه من القيمة، ولما عزّ عليه الموت إلى هذا الحد، ولا استهول أن يصبح، فإذا هو جثة هامدة لا سعي لها ولا حس ولا رُوح فيها ولا نفس، تتحلل في التراب وتمتزج بعناصره وتتفاعل معها لتساعد « الحياة » على الإنتاج، كما ساعدها في وجوده فوق ظهر الأرض بصور الإنتاج المختلفة التي قدر عليها ووفق

إليها. وقد لا نفهم الغاية التي تقصد إليها الحياة، أو قد تقصر أذهاننا المحدودة عن إدراكها، ولكن عجزنا نحن - المحدودي الأذهان - عن إدراك كنه الحياة والتفطن إلى غاياتها ليس بدليل على أن ليس للحياة غاية، وإن كان كذلك ليس بالدليل على أن لها غاية، ولكن الحياة لا تكرر نفسها؛ لأن التكرار يكون عبثاً وسرفاً، وهذه الصرامة في قوانين الحياة وسقاة الرائعة في سننها تنزهانها عن العيب، وأخلق بالإنسان - إذا نظر إلى الميت من هذه الوجهة، وجهة الحياة بالمعنى الأوسع - أن يرى فيه من السحر والفتنة مثل ما في الحياة نفسها، وأن يحس بنفسه تسمو وتحلق وتمتزج بروح الكون، وتتسرب فيها كالموجة في الموجة، وأن تذهل عن الخواطر الأرضية جميعاً.

خواطر في الحياة والموت

مجلة الرسالة بتاريخ مارس ١٩٣٦ نشر في :

كلما فكرت في أمر الموت ازدادت حيرة، وكنت أظن أن إطالة الفكرة فيه رياضة حسنة عليه، وأن ذلك جدير بأن يصغر الدنيا في عيني، ويجعلني بالحياة أقل احتفالا، فإذا الأمر على خلاف ذلك، والحال على نقيضه. وما أظن بغيري إلا أنه مثلي، وقد أقول لنفسي حين أخلو بها - وقلما أفعل هذا الآن: إن كون المرء يحيا ليموت ليس بالغاية أو النهاية التي يسكن إليها الحي ويطيب بها نفسًا، وما أشبه ما يفعل بنا هذا القدر الجاري علينا بما نصنعه نحن بخراف العيد؛ نسمنها لنذبها آخر الأمر، وفرق ما بيننا وبين الخراف أن هذه تزداد لحمًا وشحمًا وأتًا تزداد علمًا وفهمًا، ولا أدري من الذي قال إن الحياة مدرسة، ولكن الذي أدريه أنها أعجب المدارس وأخفاهما - ولا أقول أقلها - حكمة؛ ذلك أن التعلم فيها يستمر إلى نهاية العمر، ولا سبيل إلى اختصار الأمر أو الاجتزاء ببعض العلم عن بعضه لانتفاء الإرادة الشخصية، ولأن المدرسة هي الدنيا كلها، فلا خروج منها إلا بالخروج من عالم الأحياء، والعالم والجاهل سيان، واللبيب كالغبي، والساعي في وزن القاعد، والمصير واحد، والمأل لا يختلف، وكل من في هذه المدرسة العجيبة يتلقى علومه الخاصة التي لا تشبه دروس غيره، ولا ترى أحدًا يسأله هل حذق الدرس أم أهمله ونسيه؟ وكل واحد عالم وجاهل في آن معًا، يعرف ما أتىح له أن يعرف، ويجهل ما عدا ذلك أجمعه. وقل أن ينتفع أحد بما تعلم في حياته لأنه يدفن معه في قبره ويلف عليه وعلى تجاربه ومعارفه كفن واحد. وكم تساءلت - وأنا أتدبر هذا كله - عن الحكمة في تضييع ما أفاد الإنسان في حياته من العلم والخبرة؛ ذلك أن كل ما

حصل في حياته يموت معه، وسبيل إلى استنقاذ التجاريب والمعارف والانتفاع بها بعد أن يقضي صاحبها نحبه ويستوفي أجله. فهل هذه يا ترى خسارة تصيب الإنسانية كلما مات منها فرد، أم لا خسارة هناك عليها ولا ضير؟ من يدري؟

وسهل أن يفهم المرء أن يخلق لحياء، ولكن العسير أن تجعله يفهم أنه يخلق للممات. فلماذا يكون هذا هكذا؟ وإذا صح أن الحياة مدرسة، أفلا يكون الأصدق والأشبه بالواقع أن نقول إن غايتها تدريب الأحياء على الموت وإعدادهم له؛ ذلك أن الإنسان يموت منه كل يوم شيء، وشجرته لا تزال تتساقط ورقاتها وزهراتها واحدة في إثر أخرى، حتى تصوح وتعطب، وانظر ما يفعل الزمن بآمالنا ورغائبنا ومساعينا وبأجسامنا ونفوسنا؟ والآمال يدركها الحين، والشباب يذهب والصباحة يغيض ماؤها، والنشاط ينضب معينه، والشعر الأسود يبيض، والقوة تسترق، والفنأة المعتدلة تتقوس، والسمع يثقل، والنظر يضعف، والشهوات تفتقر والعجز يدب ديبه شيئاً فشيئاً؛ حتى يوافي الأجل فيكون كل هذا تمهيداً له لتدريب به النفوس على السكون إلى الموت، حتى كرا الأيام إيدان مستمر بالموت الزاحف وليس يسع الإنسان حين يتأمل ذلك إلا أن يشعر أن كل يوم يعيشه هو يوم يموت به والواقع أن الإنسان في يومه غير ما كان في أمسّه؛ لأن الحياة قائمة على التحول أو هي دائرة على الموت إذا شئت، ولا سبيل فيها إلى بقاء شيء أو ركود حال، وكل ساعة تمضي علينا تمضي بثيء منا، أو على الأصح بصورة من صور وجودنا، وحالة من حالات نفوسنا وأجسامنا، وكون المرء يتغير معناه أنه يذهب ويجيء غيره ويموت ثم يُخلق خلقاً آخر، ولكن سرعة التعاقب في الخلق تجعل الصورة الجديدة مولدة من القديمة الفانية وشبيهة بها شبيهاً يخفي وجوه الاختلاط. والذي يديم

النظر في المرأة لا يفتن إلى التغير الذي حدث، ولكن الذي يبعد عهده بالمرأيا لا يسعه إلا أن يرى أن صورته قد تغيرت، وحالت عمّا كان يعرف.

فالموت يعيث فينا نهارًا وليلاً. وصباحًا ومساءً، وكل إحساس أو رأي أو اعتقاد لنا يتغير، هو ضرب من الموت يدركنا، والشيوخوخة والأمراض وما يصيبنا من خيبة في آمالنا أو إخفاق في مساعينا رياضة لنا على ما نحن سائرون إليه من المال. وقد أتساءل أحيانًا عن معنى حياة مجهولة للموت ودائرة عليه ومتسربة فيه في كل حالة ومظهر؟ ولا جواب هناك أعرفه لسؤالي، وقد يتست من إمكان الاهتداء حتى لم أعد أحفل لا الحياة ولا الموت، أو أبالي كيف أكون في يومي، وماذا يكون من أمري في غدي. وهل الإنسان إلا مقبرة متحركة؟ بل أنا أبالي - كما قدّمت في مستهل هذه الكلمة - ولكني أعاط نفسي، وأصرفها عن النظر إلى هذا الجانب الأسود، وألهيها وأسليها بما أستطيع أن أريقه على جوانب العيش من ضوء يردّها مشرقة ضاحكة. ومن هنا نشداني للفكاهة وحرصى على الوقوع عليها. ومتى تساوى الحزن والفرح، وتعاذل الغضب والرضى، وكان الاهتداء في وزن الحيرة والضلال، وصار البكاء والضحك سيئين، فالضحك أولى إذا قدرت عليه، والدنيا مآثم فما أحقنا بأن نسر الناس، أو نسرهم، أو نذلهم لحظات عن تنغيص حياة مبطنّة بالموت، وذلك يتطلب الإرادة، ولكن الإرادة تكتسب.

سرقت لأصبح أديبا

نشر في جريدة : أخبار اليوم بتاريخ سبتمبر ١٩٤٨

حدثني بعض الزملاء قال إن الأدباء الشبان يزعمون أننا نحن «الشيوخ» كما يسموننا - نسد في وجوههم كل الفجاج! فتبسمت وقلت لنفسي: يظهر أن شياطيننا مرده، وشياطينهم صبية صغار لا يزالون يلعبون في «الحارة» ويُهملون اكتساب المعرفة والتجربة والحنكة!

وأتكلم جيدا فأقول إني تذكرت كيف كنت وأنا غرض السن صغيرها، وكيف كان يُخجلني حتى أن أمر على مقهى، فأنزل عن الرصيف إلى الشارع! وكيف كنت أحيي الليل بالسهر وأنا عاكف على قراءة كتب عويصة مثل «أصل الأنواع» لداروين، وعلى طبعة سخيصة ولكنها رخيصة — وتلك كانت مزيّتها يومئذ — لكتاب الأغاني تكاد تعصف بالعقل، وعلى طبعة «هندية» أهداها إليّ صديق كريم لديوان الشريف الرضي، محشوة بالأغلاط والتصحيف والتحريف.

وتذكرت كيف كنت أنفق نصف دخلي على اقتناء الكتب، وكان موظفو مكتبة «ديمر» يعرفونني ويأتمنونني لكثرة ما أشتري منهم، وهو في كل شهر فوق الكفاية لشهور، ومع ذلك غافلُهم وسرقت طبعة «جيب» لروايات شكسبير، وإن كانت عندي مجموعة كاملة منها بشروحها وتفسيرها، ولا خوف من الاعتراف بهذه الجريمة، فقد سقطت، بمضي المدة «ثم إنها جريمة طالب معرفة، لا جريمة طامع في مال!

وكننت كثير «الغياب» في مدرسة المعلمين، لأنني كنت أسهر إلى الصباح أقرأ وأحاول أن أفهم، ثم أنام فأتحلف. فدعاني ناظر المدرسة المرحوم إسماعيل حسنين

باشا-عليه ألف رحمة - وقال لي، « يا بني، إنك « حمار » في العلوم الرياضية، وأنا أخشى عليك الرسوب، ولا ألومك على التخلف ما دام هذا عذرك، فخذ إجازة خمسة عشر يوماً، واقرأ اشئت، ثم واطب بعد ذلك على الحضور.

وكان أساتذتنا يحضوننا على القراءة، وتخرجت، وصرت مدرساً في مدرسة ثانوية، واتفق يوماً أن كنت في مقهى فيما يعرف الآن بميدان الإسماعيلية، وكان معي كتاب « الشاعر على مائدة الإفطار » لريندل هولمز، وكنت أقرأ فيه، فما كان هناك يومئذ بنات يشغلن الجالس في المقهى بالنظر إليهن مُقبّلات ومُدْبِرات، فمر أستاذي في الأدب الإنجليزي، فنهضت لتحيته، فقال لي بعد كلام: « لقد أصبحت موظفاً، وأكبر ظني أنك انصرفت عن القراءة والاطلاع. » فأريته الكتاب، فريبت على كتفي وقال: « هذا ما أرجو، أن تظل تقرأ وتقرأ ولا تشيع، وأن تحرص دائماً على أن تضيف عقولاً إلى عقلك. » فقلت في سري: هذا مثل كلام الجاحظ الذي ما ترك في زمانه شيئاً يُقرأ إلا قرأه، وقد مات حين سقطت عليه كتبه!

وكنت أكتب، وأنظم الشعر، وأحاول النشر، ولم يكن شئ سوى جريدتين تشجعان الأدب، هما « الدستور » لفريد وجدي بك، و« الجريدة » للطفي السيد بك وكنا نفرح حين يُنشر لنا شيء، وإن كنا لا نتقاضى عليه أجراً، فما كان يخطر لنا الأجر على بال، ونظمت قصيدة طويلة قلت أنشرها في « اللواء » فلبثت ثلاثة أسابيع، أسعى وأرسل الشفعاء والوسطاء حتى نُشِرَ نصفها!

وكنا نطبع الكتب على نفقتنا، ونودعها المكتبات « أمانات »، ويتكفل الإخوان « بتوزيع » بعضها مجاملة ومساعدة. ومن أल्प ما يُروى أن أحد إخواننا

طبع كتابًا، وأودع نسخًا منه مكتبة، ثم مرَّ بعد شهور بالمكتبة يسأل عمَّا يبيع من كتابه، فطلب صاحبها «الإيصال» فقدمه إليه، فدسه في فمه وبلعه!

وأصبحت أديبًا معروفًا، تستكتبه صحف شتى، واسمه يظهر كل يوم، وكنت أكتب وأنشر، منذ سنة ١٩٠٧، ومع ذلك بعثتُ أضخم كتاب لي - وأحسن ما كتبت في رأي بعض الزملاء - في سنة ١٩٢٤ بثلاثين جنيهاً! وقد طُبِعَ الكتاب ثلاث مرات، ولكن هذا كل ما أفدت منه، ويقول المثل العامي «يكفيني نعيورها» أي الساقية ولم يخرج منها ماء! وقد كفاني «نعيورها» فعلاً.

وفي سنة ١٩٢٩ تفضل ناشر فطلب أن ينشر لي «صندوق الدنيا» وهو أروج كتيبي، فقبلت وطُبِعَ الكتاب، ونفذ، ولم أقدض من ثمنه مليماً واحداً!!

وفي سنة ١٩٣٠ طلبت مني مجلة الهلال مقالاً، فلدبت، وبعد أيام تلقيت رسالة مسجلة فيها «شيك» بخمسة جنيهات! وكنت وحدي في غرفتي، ومع ذلك احمرَّ وجهي خجلاً - أو شعرت أنه أحمرَّ - فقد كان هذا أول أجر على مقال أدبي وكان قد تقرَّر في نفسي أن الإنتاج الأدبي لا يباع، ولا يطلب به الربح.

أريد أن أقول إن طريق الأديب طويل وشاق، وإن ظل خطوة فيه تتطلب منه كفاحاً وصبراً، وإن الذين يُعدُّون شيوخاً فيه إنما صاروا كذلك، لا بارتفاع السن، بل بأنهم يعدون أنفسهم «تلاميذ» لا تنقضي حاجتهم إلى الدرس والتحصيل والمثابرة عليهما، وبالنظر والتأمل، ومحاولة الإدراك الصحيح.

وهل يستطيع أحد أن يعيش بلا طعام؟ كذلك العقل لا بد له من غذاء.

في الحب أيضًا

نشر في مجلة: الرسالة بتاريخ ، فبراير ١٩٣٧

أرجو ألا يتوهم أحد أن هذا حديث في فلسفة الحب؛ فإنه لا قدرة لي على الفلسفة، وقد فقدت إيماني بها منذ خذلتني وخبّبت أمني وعجزت عن أن تفسر لي شيئاً مما يحيرني في هذه الحياة. وقد قرأت كثيراً مما كتبه الذين ينسبون إلى الفلسفة وإلى البحث العلمي. غير أنني لم أقتنع به ولم أسترح إليه، ومن سوء الحظ حظي أنا بالطبع كما لا أحتاج أن أنبه - أنه ليس لي في هذا الباب تجربة تستحق الذكر، حتى كنت أعرض ما يقول الفلاسفة والعلماء على ما جربت، وأرى إلى أي حد أصابوا ووقّفوا. ولست أكتمكم أنني عاجز عن هذا الحب، وعسى أن أكون واهماً لا عاجزاً، ولكني ما قرأت قطُّ شعر العشاق وما قالوه في الصباية والوجد وفيما تضطرب به نفوسهم وتجيش به صدورهم من الخوارج والإحساسات في القرب والبعد، والإقبال والصد، والمواتاة والحرمان، ولا سمعت ممن أعرفهم وصف ما جربوا من ذلك إلا قلت لنفسي — حين أخلو بها: «امح لي يا نفس أن أقول»: إنك - وإي مؤاخذه - بليدة «فتسألني: لماذا؟ فأقول «لأنني لا أراك تحسین شيئاً من هذا الذي أجمع على وجوب الإحساس به الشعراء والناس قاطبة، فهل أنت بليدة أم هؤلاء كلهم كذابون أو على الأقل مبالغون؟» ولا أحتاج أن أقول إنني لا أخرج من هذا الحوار الذي يدور بيني وبين نفسي بشيء أنس به وأستريح إليه؛ فإنها تصر على أن الناس مبالغون وأصبرُ أنا على منطلق «قرقوش» المشهور؛ فقد قالوا إن ناساً كثيرين وضعوا رجلاً من الأحياء في نعش وحملوه فيه كال ميت، فمر قرقوش بجنازته فصاح به الرجل مستنجداً وأكد له أنه لا يزال على قيد الحياة، فأطرق قرقوش قليلاً، وقتل

شعرات من لحيته، ثم رفع رأسه ونظر إليه وإلى الناس وقال: «أتريد أن أصدقك وأكذب هذا الخلق كله؟» وكذلك أنا مع نفسي لا يعقل عندي أن تكون هي وحدها على صواب، وكل هذه الملايين من النفوس مخطئة أو كاذبة أو مبالغ.

ولا أنكر أن نفسي كانت تتحرك أحياناً، فأشجعها مسروراً، وأستحثها فرحاً بيقظتها بعد طول السبات، ولكن أقصى ما جريت حين تفتح النفس عينيها على ما حولها أن يخفق القلب خفقات تصعد به إلى حلقي من فرط شدتها؛ فأفريق وتعود فتتهوي به إلى قريب من حدائي، كأنما هذا ليس قلباً وإنما ركب لي الله سبحانه في مكانه لعبة من لعب «اليويو» التي شاعت في الزمان الأخير، وأحياناً أشعر بأن حولي فراغاً وأحس شيئاً من الלהفة وقليلاً من الشوق، ولكنه شوق هادئ ولهفة محتملة لا تثقل على النفس ولا يشقى بها القلب ولا يسود من جرائها العيش. وشببه بذلك أن يشتهي الإنسان أن يرى شريطاً من أشرطة السينما سمع عنه ثناءً أو أن يشناق أن يطوف حول الأرض أو يشاهد معرضاً كبيراً في بلد ناءٍ ولا أظن أن هذا يعد حباً بالمعنى القديم أو الحديث.

وللسامع العذر إذا سأل: كيف إذن كنت تقول الشعر في شبابك، وتذكر فيه الحب ولواعجه وصباباته، وما تزعم أنك كنت تعانيه من السهد والضنى أو تريقه من الدموع إلى آخر ذلك؟ والسؤال طبيعي ولكن الجواب عنه حاضر، ولولا عادة الصدق التي اكتسبتها في الأيام الأخيرة لعزّ الجواب. والجواب يعرفه القراء فقد سقته في فصل سابق عن الحب نشرته لي «الرسالة» وخلاصته أنني أوحيت الحب إلى نفسي.

ومن الجرأة أن أزعج أن الناس كلهم كذلك، ولكني أقول إن نشوة الحب تطول عند الناس بفضل الإيحاء المستفاد من تأثير الجماعة والعُرف، ولو خلت الكتب ممّا نقرأه في وصف الحب وأثره في النفس، وألف المرء أن يرى الناس يحبون حباً لا يخرج بالنفس عن الاتزان؛ لصار الحب هادئاً فاتراً كالصداقة. وأحسب أن الفرق بيني وبين غيري ليس هو أنني شاذ وهم طبيعيون، بل أنني تأثرت بإيحاء الجماعة وإيحاء الكتب، وأنا عارف بذلك مدرك له متفطن لحقيقته، وأن الأكثرين يتأثرون على هذا النحو تماماً، ولكنهم لا يدركون أن في الأمر إيحاء ولا يفتنون للحقيقة فيه، والحياة تقوم - كما لا أحتاج أن أبين - على الإيحاء، وكل امرئ يوحى إلى كل امرئ آخر ويستوحي منه، بل نحن نستوحي الأشياء كما نتلقى الإيحاء من الناس.

وبخيل إليّ أن الحب اسمه غلط؛ فإنه يدولي أن هذه العاطفة التي نسميها الحب خالية في الحقيقة من الحب، والعلاقة فيها بين الجنسين ليست علاقة مودة وهذا كلام قد يبدو متناقضاً ولكني أظنه صحيحاً؛ ذلك أن الحب ضرب من الجوع ولا تقولوا إنه جوع معنوي فإن هذا يكون تخريفاً؛ إذ ليس ثمّ فيما يتعلق بالإنسان أو الحياة شيء معنوي. والإنسان مادة وكل ما في الحياة من المادة وإلى المادة فلندع هذه الخيالات ولنجتزئ بالحقائق؛ فإن أرضها صلبة متينة لا تسوخ فيها الرجل والمرء يجوع فيشتهي الطعام أي يطلبه، لا لأنه يحب الطعام في ذاته، ولا لأن بينه وبين ما يأكل مودة، بل ليسد الحاجة التي يشعر بها ويقضي الرغبة التي تلج به ولا يستطيع أن يهدئها بغير الأكل، وكذلك يجوع جوعاً من ضرب آخر، جوعاً يطلب به إرضاء الرغبة الطبيعية في النسل إطاعةً لغريزة حفظ النوع، كما يطلب بالأكل

إطاعة لغريزة المحافظة على الذات. وكما لا يقال إن بين الأكل والمأكل مودة كذلك لا ينبغي أن يقال إن بين المحبين مودة، إنما تكون العلاقة بينهما قائمة على الرغبة في الالتئام أو الاستحواض إطاعةً للغريزة لا عن مودة. والحبيبان أشبه بالمتقاتلين المتبارزين منهنما بالصديقين المتوادين؛ لأن مطلب كل منهما الاستيلاء والغلبة، وهما لا يستعملان سلاحًا ولا يحدثان جراحًا، ولكن الواقع أن القُبل والعناق والضم وغير هذا وذاك مما يكون بين المحبين، كل ذلك ليس إلا وسائل للتلين بغية التغلب.

وقد استعمل الشعراء ألفاظًا كثيرة كانوا فيها صادقين من حيث لا يشعرون فذكروا في مواقف الحب وحالاته المختلفة المتعددة السيف والجراح والأكباد القريحة والقلوب المفجوعة والنفوس الكليمة والسهام وما إلى ذلك، فأشاروا إلى حقيقة العلاقة بين الحبيين من حيث يحسون بها بالفطرة ولا يدركونها بالعقل. والحقيقة هي أن الحب حرب واقتتال وقتك، وغايته -وهي النسل- تنطوي على تعرض للتضحية الكبرى على الأقل من جانب المرأة، وسبيله الإخضاع.

فالمرأة تحاول إخضاع الرجل ليتسنى لها بذلك أن تجيء بالنسل الذي جعلتها الحليعة أداة له، والرجل يحاول إخضاع المرأة ليتسنى له أن يجعلها تجيئه بالنسل الذي يطلبه بغريزته، والحال بينهما دائر أبدًا على الكفاح. وفي كل شعر صادق قديم أو حديث - لمحات عديدة تدل على التفتن إلى هذه الحقيقة ولو من غير إدراك تام صحيح جلي لها.

والحب ينخذ الصورة التي يودى إليها التفاعل بين عاملين: الأول وهو الدافع الغريزي للإنسان، والثاني هو مقاومة الجماعة، وهي مقاومة مرجعها إلى العرف والدين

وما يجري هذا المجرى. وإلى تفاعل هذين العاملين وما ينتجانه فيما بينهما من الأثر ترجع الصور الشائعة للحب بين الجماعة. وقد كان التحرج شديدًا في الجيل الماضي من ذكر الحب والاعتراف به أو المجاهرة به؛ لأن التقاليد كانت صارمة وكان لها معين من الدين لا يُستهان به، وكانت الجماعة تنزع إلى الاحتشام وكانت قاعدة الحياة من هذه الناحية، المثل المشهور: « إذا بُليُّم فاستتروا » فكانت معاقرة الخمر على قارعة الطريق ممنوعة لا يحكم القانون بل بقضاء العُرف، وكان الشبان مثلاً يستحيون أن يجلسوا في القهوات، وكان النساء يتحجبن ويحرصن على ستر زينتهن، ولم يكن اتصال شاب بفتاة من الهيئات، ثم جاءت الحرب فرجت الدنيا وزلزلت قواعد الحياة فيها، وانتشر التعليم، وشاع الاطلاع على الآراء الجديدة في الأمور الجنسية، وهدمت الهيئة القومية المصرية حواجز كثيرة وفي جملتها ما كان يفصل بين الجنسين ويفرق بينهما، وصار الناس — شيئًا فشيئًا — يلهجون بذكر الحب ويتناولونه في مجالسهم وفي كتاباتهم تناوُلًا هو أقرب ما يكون إلى البحث العلمي، ولم يعد الشبان - بسبب نشأتهم والجو الجديد المحيط بهم ينظرون إلى الحب وما يتعلق به كما كان آباؤهم يفعلون أو يرون في الأمر موجبًا للحماسة أو داعيًا للخجل أو باعثًا على الاستحياء. وجاء التطور الاجتماعي ولا سيما فيما يتعلق بإمكان ضبط النسل هادمًا لحاجز منيع بين الرجل والمرأة. وفي الأمثال إن الشجرة تعرف من ثمارها، فإذا لم تكن ثمَّ شرة فأين الشجرة؟ وضعف العرف وتفككت قيوده وحصل التمرد عليه في سبيل الحرية كما حصل التمرد على كل قيد آخر.

ومن أخطار الحرية في بادئ الأمر أن الناس يطلبون الحقوق وينسون الواجبات التي تقابل الحقوق، والتوازن لا يعود إلا ببطء وبعد التجارب الطويلة والمعاناة المرة والدروس العملية الأليمة؛ وبذلك فقد الحب الهالة التي كانت حوله وسُئِبَ القداسة القديمة، وصار على الأيام أمرًا عاديًا، وهوى إلى مرتبة الرقص والألعاب الرياضية؛ لأن وطأة العُرف والتقاليد ضعفت وخفت جدًا حتى ليتمكن أن يقال إنها غير محسوسة في الأغلب والأعم، وفي مثل هذه الأحوال التي يعظم فيها الترخُّص والتسامح يندر الحب القوي العميق الطويل العمر، وقد يكون هذا الحال هو بعض السر في ركود الشعر إلى حد كبير في هذه الفترة من حياتنا الأدبية.

معاملة الناس

نشر في مجلة ، الرسالة - بتاريخ سبتمبر ١٩٣٧

لو أني صدقت ما حدثني به شيوخ الجيل الماضي الذين هم في منزلة آبائنا وأعمامنا، وما روه لي في وصف حياتهم المنقرضة ومعاملاتهم وعلاقاتهم، لكنت حريًا أن أعتقد أن ذاك الجيل الذي انقضى كان أفضل وكان حظه من الرجولة أعظم، ونصيبه من البساطة التي يستقيم بها النظر أوفر وأجزل؛ فقد كان الفقر لا يعيب أحدًا في ذلك الزمان، ولا يغري الصديق بالفرار من صديقه أو اجتنابه وكان حسن الأدب والتواضع ولين الجانب لا يعرض المرء للاستخفاف أو قلة المبالاة به، وكان للعلم شأنه وكرامته، وكانت المعاملات تقوم على الصدق والثقة ولا تحتاج إلى الصكوك وما إليها، وكان الصغير يوقر الكبير، ولا يغمط الكبير فضل الصغير أو يبخسه حقه، إلى آخر ذلك ممَّا لا حاجة إلى التقصي فيه. وقد أدركت بعض ذلك؛ ففي وسعي أن أطمئن إلى الصدق في سائره، فمن ذلك أنه بعد وفاة أبي بشهور ثقيلة، دَوَّ علينا الباب رجل من العلماء كان زميلًا لأبي، وقال إن «الأفندي» - يعني والدي فقد اتخذ زني الأفندية في آخر زمانه - ترك معه قُبَيْلَ وفاته مبلغًا من المال، وإنه لا علم لأحد بذلك، وإنه يخشى أن يزوره الأجل، ودفع إلينا المال ومضى مرتاح الضمير، ولا أدري ما شأن غيري، ولكن الذي أدريه أنه لو أئتمنتني أحد على مال له لكان حقيقًا أن يئأس من رده!

وقد وجدت بالتجربة أنه لا كرامة لمن لا مال له، وأن صاحب المال - وإن كان قد جمعه بشَرِّ الوسائل وأرذلها وأسفلها - قد يغتابه الناس ويبسطون فيه ألسنتهم، ولكنهم لا يلقونه بغير الحفاوة ولا يبدون له غير التعظيم والتوقير، وأن من

شاء أن يضمن إكبار الناس له فليشعرهم بالاستغناء عنهم، وأن الناس ينزلونك حيث أنزلت نفسك، ولا يخطر لهم أن يرفعوك عنه، فإذا كنت معهم عَفَّ اللسان مكفوف السلطة مأمون الغضب، لم يهابوك ولم يبالوك، ولم يتقوا أن يسيئوا إليك وإن كانوا يرون منك أنك تكره أن تسيء إلى نعمة، وقد يظهرون لك الاحترام ولكنهم يعدون ذلك فضلاً منهم وإيثاراً للصنع الجميل. لا حقاً لك عليهم. أما إذا كانوا يعرفون أن أديك لا يمنحك أن تهيج بهم وأن لينك قد ينقلب صلابة وعنقاً، ورقّة لمنسك خليقة أن تحور شوكاً حاداً كشوك القنفذ، إذا خطر لهم أن يجاوزوا معك الحدود التي ترسمها لهم في علاقتك بهم، وتفرضها عليهم، فأيقن أنهم لا يكونون معك في حال من الأحوال إلا على ما تحب وترضى، وقد يسخطون عليك في سريرتهم ويكتمونك ما ينطوون عليه لك من المقت والحقد. ولكن هذا لا قيمة له؛ فإن الخوف من عصفت بهم يظل يقيك أذاهم. وماذا يضريك أن يجدوا ويضطغوا إذا كانوا لا يحرون أن يكشفوا لك عن هذه الصفحة المستورة؟ وإنك لتعلم أنهم ينافقون ويبدون غير ما يبطنون. ولكن الحيلة في ذلك قليلة، والشأن شأنهم لا شأنك. وعلى أنه ما داعي الغيظ والنقمة؟ وما موجب الكراهية والمقت؟ وما الحاجة إلى النفاق؟ إن كل ما تبغيه منهم أن يجنوا الإساءة إليك كما تجنبا إليهم، فإذا بدأوك فإنهم الظالمون. والشاعر القديم يقول:

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمك وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا!

فإذا كانوا يابون إلا أن ينتحلوا الحق في الإساءة بلا مسوغ، فذنبهم على جنبيهم، وتالله ما أسرع ما يرتد الناس إلى الواجب وحسن الأدب إذا رأوا منك ترداً على سوء الخلق وقلة الحياء! كان كبيراً من الكبراء يدخل حيث أكون، فيمر

بي وكأني قطعة أثاث، وكنت ألقاه كثيرًا، فحملت هذا في أول الأمر على الذهول أو نحوه، ولكنه كرّر وباح وتبينت فيه سخافة الكبرياء والنفخة الكذابة، فقلت: أكيل له بصاعه، وصرت أتعمد أن أدخل عليه وهو مع الناس فأحييهم وأهمله، وأتخطاه بيدي وعيني كأنه ليس هناك، ولم يكن له غير هذه النفخة، فلما خرقت القرية المنفوخة، لم يبقَ شيء، فلم يطق صبرًا، وأقبل يومًا فهممت أن أشيح بوجهي عنه فإذا هو يطوقني بذراعيه!

وليست هذه المبادئ التي يُلقنها التلاميذ في المدارس، ولكنها هي المبادئ التي ألقنها ابني، وأحرص على أن يفهمها ويعمل بها، وقليل من رياضة النفس عليها تكفيه، لا مثلي، فقد نشأت على غير ذلك واعتدت خلافه، فخبب الناس والدنيا أمني في كل ناحية، وأحدثوا لي رجّات نفسية أتلفت أعصابي. وكنت أعتقد مثلاً أن في وسعي أن أسير في الحياة من غير أن أسيء إلى أحد أو أخشى أن يسيء إليّ أحد، وأن عليّ أن أعطي الناس حقوقهم في صراحة وبإخلاص، وأن لي أن أتق أن سيعطيني الناس حقي ولا يقصرون في أدائه إليّ كاملاً، فإذا الأمر على خلاف ذلك ونقيضه. أنا أكف أذاي عن الناس، ولكنهم هم لا يعنون بمثل ذلك، حتى لصرت مضطراً أن أحتال لاتقاء أذى الناس، وأنا أؤدي للغير حقه غير منقوص، ولا أبخل عليه بالإسراف في الأداء، ولكنه هو لا يخطر له أن لي حقاً يؤدى، أو كرامة تُحفظ لا لسبب إلاّ أنني لا أنقحّم على الناس ولا أركبهم بالغطرسة، ولا ألج عليهم ببيان ما يجب لي؛ ومن هنا تغير رأبي في كل ما نشأت عليه، وأدركت أنه لا يوافق هذا الزمان، وتغير سلوكي مع الناس، واختلقت سيرتي وتربيتي لأبنائي، وما زلت أجنب أن أبدأ بعدوان، فما لهذا معني، ولكني لا أتردد في دفع الأذى، ولهذا مزيتة، وتلك أن ترغم الناس على أن يكونوا خيرين!

الدستور ورجل الشارع

نشر في جريدة السياسة الأسبوعية بتاريخ ديسمبر ١٩٣٠

الفرق بين الحكم الدستوري وغيره فيما يُحس «رجل الشارع» - كما يقول الإنجليز - هو أن الأول (أي الحكم الدستوري) يفيد الشعور بالرضى والاطمئنان على حرياته وحقوقه، والقدرة على تغيير ما لا يروقه، وقد يكون الواقع خلاف ذلك وربما جاء الحكم الفردي أحياناً أصحح وكان أبعث على الارتياح، ولكنه سالف ما بلغ من الصلاح - يسلب رجل الشارع هذا الشعور ويمنع نشوءه في نفسه؛ ذلك أنه يقوم على إرادة الفرد لا على إرادة الجماعة في أي مظهر من مظاهرها، فعمل الفرد من الأمة هو أن يسمع ويطيع، من غير أن يكون له اشتراك مباشر أو غير مباشر فيما يُلقى إليه من الأمر؛ وهو لذلك لا يستطيع أن يشعر أنه آمن على ما يتمتع به من الحريات أو يستعمل من الحقوق، وكل ما في يده من ذلك هو عرضة لأن يُسلبه وسبيله أن يحتمل، أو أن يتوسل ويتضرع، أو أن يتمرد ويجنح إلى الانتفاض وهو يحتمل ما يسخطه ويتصبر ويتشدد، ويشقى صيره فيشكو، حتى إذا استنفدت الحوادث مجلوده خرج عن طوره وأعرض عن ذكر العواقب وتآر، وهذا شر ما في الحكم الفردي، أو أي طراز من الحكم لا يتوقى هذه المغبة بأن يدع للشعب متنفساً، ويترك له سبيلاً مشروعاً يمضي منها إلى غايته من غير أن يشعر بوجوب اللجوء إلى العنف والثورة.

وليس كذلك النظام الدستوري؛ فقد يتفق أن يتولاه من سيئون استعماله؛ فيفشوا الظلم في عهدهم وتثقل وطأة الحكم في ظلمهم على الناس، ويعظم الخطب ويشد الكرب وتضيع المصالح وتُهمل المرافق، وتنتهك الحريات وتُغصب الحقوق؛

ولكن الشعب أو رجل الشارع يبقى له شعوره الذي ينقد الموقف، وهذا الشعور هو أن في وسعه أن يغير هذا الحال. وأن يُنَجِّيَ عن الحكم من لا يحسنونه، وأن يأبى عليهم الثقة التي مكنّهم من ولاية الأمر؛ وذلك بإيثار غيرهم في الانتخابات التالية حتى يجيء يومها، فليس ليل اسلم عليه سرمدًا، ولا الكرب الذي يعانیه مخذلاً، وللأمل مضطرب واسع، وللسعي طريقَ معبد، وموعده يوم الانتخاب، وهو مهما بُعد قريب. وصحيح أن رجل الشارع لا يتولى الحكم ولا يشترك فيه، وأن رأيه لا يقيد ممثليه، ولا نكران أن الأمور تجري من غير أن يرجع إليه الذين يقطعون فيها برأي وغير مردود أن الأمر يخرج من كفيه بعد أن يُبدي رأيه يوم الانتخاب، وأنه لا يملك بعد ذلك أن يكبح المسيء أو يرد المخطئ إلى الصواب، ولكن له مع ذلك عزاءً مزدوجًا؛ هو أن حرياته وحقوقه وديعة في يد القضاء يحميها ويرد عنها من يريدتها بالسوء، ثم إن المصير على كل حال إلى رجل الشارع، والأعوام تمر والأيام تنقضي ثم يعود الأمر إليه ويحتكم المتنافسون على الحكم إلى إرادته واختياره، وفي مقدوره حينذاك أن يُشيع بوجهه عن الذين أساءوا السيرة وأن يُؤثر عليهم غيرهم ممن يكون هو أحسن بهم ظناً.

وصحيح كذلك أن رجل الشارع ليس بالأخصائي في الفقه الدستوري، وأنه لا يستطيع أن يزن الدستور من هذه الناحية وزناً دقيقاً محكماً لا يغل شعيرة، ولكن غير صحيح أنه عاجز عن تكوين فكرة مجملّة عن الدستور وروحه؛ فإن في وسعه وإن أعياه أن يورد النصوص ويستشهد بالمبادئ والأحكام - أن يخرج لنفسه برأي صحيح في جملته عن روح أي دستور، وليس يخفى عليه فرق ما بين دستورين: واحد يُضيق سلطة الأمة وآخر يُوسعها، أو واحد يجعلها هي المرجع في الظاهر، وثانٍ

يجعلها كذلك في الحقيقة، وليس عجزه عن الجدل الفقهي بمانع أن يكون ما استقر في روعه صحيحًا على العموم، ومن الجهل بالحقائق أن يتصور الإنسان أن رجل الشارع مخلوق لا يُعنى إلا بطعامه وشرابه، ولا يتقبل ذهنه ما يعدو حاجاته المتصلة بوجوده الحيواني؛ فقد يكون بُعدُه عن البحوث الفقهية المعقدة أعون له على صحة التفكير واستقامته، وأضمن لخلو تفكيره من الاضطراب الذي يؤدي إليه تشعب البحث وتعارض الآراء، وأدعى إلى أن تكون النظرة مستقيمة لا عوج فيها ورجل الشارع ينظر إلى الحقائق ويقيس إليها كل شيء، ولا يتعلق بالكلام النظري؛ لأن حياته عملية، وكذلك أساليبه في معالجة الأمور وفي فهم الأشياء، ومن هنا كان حكمه على الأمور حقيقًا بأن يكون أصدق؛ لأنه يحكم عليها وهو مواجه للحقائق الواقعة غير مغالطٍ نفسه فيها، أو ضالٍ بينها كما يضل الواسع العلم العميق التفكير، وإن كان جمهور الناس على خلاف هذا الرأي، وكانت العقيدة الشائعة أنه كلما كان الإنسان أعلم وأكثر تفكيرًا، كان أسدً لذلك نظرًا وأهدى سبيلًا وبحسبنا في دفع هذا الوهم الذي يركب الناس أن نقول إن العامة كثيرًا ما يكونون أفهم للحياة وأشد توفيقًا في الاهتداء إلى حقائقها، ولكل أمة أمثالها الشائعة الدائرة على الألسن، وهذه الأمثال كنز عظيم، من هم الذين يضعونها ويفرغونها في القوالب التي تجعلها أسير وأذيع وأسهل في التريدي؛ ليسوا هم العلماء والمفكرين وإنما هم العامة والأميون، وعامة كل أمة هم الذين يختزلون حكمة الحياة ويلخصون تجارب القرون، ويختصرون الحقائق الخالدة في ألفاظ قليلة تذهب مثلًا وليس على من شاء إلا أن يحضر إلى ذهنه طائفة من أمثال العامة، ويتدبرها ليرى إلى أي عمق يصل العامة في التعبير عن حقائق الحياة وفي اختزال حكمة التجارب

وكون هذه الأمثال الحكيمة العميقة تجري على ألسنتهم وتصدر عنهم بلا عمد لا ينفي أن الذهن الذي ابتدعها وأحسن العبارة عنها قد شُغل بها، وأنها هي قد دارت فيه وظلت تتكون حتى انتهت إلى البروز في صورة تامة يصح إلقاؤها إلى الناس، ويستطيع الناس أن يتلقفوها بسهولة.

فكون رجل الشارع أخصائيًا في الفقه الدستوري ليس معناه أنه لا يفهم ولا يدرك الأشياء على وجهها الصحيح، ومن ظن غير ذلك فقد خدع نفسه وغشها؛ ومن هنا هذا الامتعاظ العام من الدستور الجديد، وهو امتعاظ تستغربه الوزارة الحاضرة وتظنه راجعًا إلى فعل خصومها، وتتوهم أن رجل الشارع إذا تُرك وشأنه وبقي بمنجى من تأثير هؤلاء الخصوم، خليق أن يرضى آخر الأمر عما يتسخط الآن من هذا الدستور، ولا شك أن خصوم الوزارة لا يكتفون رأيهم في الدستور الجديد ولا يحجمون عن بث نقدهم له وإفشاء اعتراضهم عليه، ولكنه لا شك كذلك أن الامتعاظ العام راجع في مَرَدِّ أمره إلى ما استخلصه الناس من روح هذا الدستور، وانتهوا إلى الاعتقاد فيه من غير أن يكون لخصوم الوزارة أثر يذكر في إحداث هذا المشعور، والقول بغير ذلك لا يكون إلا عن جهل لروح الجماعات وقلة فهم لطبيعتها وسوء رأي فيها.

ورجل الشارع لا يجد أنه يفيد من هذا الدستور الجديد ذلك المشعور الذي أسلفنا الكلام عليه في مستهل هذا المقال، وقد يشق عليه أن يبين علة بنص الأحكام التي اشتمل عليها الدستور، ولكن هذا لا قيمة له؛ لأنه يعرف - وحسبه هذا أن الدستور لا يجعل الأمر إليه حتى يوم الانتخاب، وأنه لم يعد ذلك المرجع الأخير الذي كانه بمقتضى الدستور الذي ألغته الوزارة، فليس في وسعه أن يُحس برضى

أو يشعر باطمئنان على حرياته أو حقوقه، أو أن يتعزى عما يسخطه بأن في مقدوره حين يكر المختلفون إلى الاحتكام إلى إرادته، أن يجعل لهذه الإرادة المظهر الذي يُؤثره، بنقل ثقته من فريق إلى فريق، وإذا عدم رجل الشارع هذا الشعور فماذا يبقى له؟ وأي فرق يكون عنده بين نظام دستوري وآخر غير دستوري؟

ورجل الشارع كتلة بطيئة ولكنها لهذا وطيدة، وكذلك الحق، وقد يستخف بها الذين يحسبون أنهم من طراز المتفوقين، ولكنهم لا يستطيعون أن يتقدموا خطوة من غير هذه الكتلة، وليس المهم - آخر الأمر - ما يفعله أو يفكر فيه المتفوقون، بل ما تتقبله وترضى عنه وتأخذ به هذه الكتلة.

العراق بين ماضيه وحاضره

نشر في مجلة : الكتاب بتاريخ ديسمبر ١٩٤٥

سمعت صديقتنا عراقياً أديباً يقول: إن العراق لا يقوله قرار، وإنه أبداً في قلق وتحفز، وليس من شأن ذلك أن يكفل له اطراد التقدم.

ومضحك وقال: «لعلك لم نسّ ما قال الحجاج».

بشير إلى كلمته المشهورة: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق والله ... إلخ.

فقلت له، إن ما زعمه الحجاج غير صحيح، ولست أحتاج أن أقضي في العراق عمري لأعرف ذلك، فإن به من مصر مشابه كثيرة، والحجاج وأمثاله من الطغاة هم الذين يجنون على الأمم، ويورثونها ما تسميه أخلاق الشقاق والنفاق التي تعيبها.

والحقيقة أنه لم يظلم العراق أحد كما ظلمه الحجاج بهذه الكلمة، وأي شيء أظلم من أن يصبح العراق متهمًا بأنه - دون أمم الأرض - بلد النفاق والشقاق؟ أهو بدع في الخلق؟ أيدخل في عقل عاقل أن تتميز أمة من الأمم وتنفرد بهذه الأخلاق؟

وعندى أنه يجب التفريق بين الطباع الأصلية، والأخلاق المكتسبة، وينبغي أن يسأل

الإنسان نفسه: لماذا ينافق المرء؟

وماذا ينزع به إلى الشقاق؟

وأحسب أن الجواب أنه ينافق لأنه يخاف ولا يطمئن إلى عواقب الصدق والصراحة، ولا يرى أنه في أمان من صروف الحذر، فهو يلقي نفسه - مضطراً لاتقاء الشر أو اجتلاب الخير - إلى المصانعة والتقية.

وكل امرئ في هذه الدنيا يحتاج إلى قدر من المصانعة؛ لأنه لا يسعه أن يكون صادقاً صريحاً في كل حال، وما أظن إلا أن الدنيا تفسد، والحياة تعود وهي مما لا يطاق لو كان كل إنسان يُظهر ما يبطن، ولا يجري لسانه إلا بما يدور في نفسه ولكن هذا القدر من المصانعة الذي لا تطيب الحياة إلا به، ولا تستقيم أحوال الناس بغيره شيء، والنفاق الذي تضطر إليه الأمة شيء آخر، مختلف جداً، فالأول ليس أكثر من وسيلة تصفوها العلاقات بين الناس من الأكدار، وأما الثاني فآثر من آثار الاستبداد، وكل أمة إذا طال عهدها بالحكم الفردي الاستبدادي تلقي نفسها مكرهة على اصطناع النفاق وتوخييه، حتى يصبح ذلك وكأنه طبيعة فيها أو مما فطرت عليه، وليس الأمر كذلك، فإن بضعة أجيال من الحكم الصالح القائم على الحرية وتحري العدل وإيتاء الناس حقوقهم، والمساواة بينهم، تغني الأمة عن ضرورة النفاق.

والنفاق ولبد الخوف، ولا خوف في ظل العدل والمساواة والحرية، وقد ابتهت مصر، كما ابتهت العراق، بأدهار طويلة من الحكم الاستبدادي الغاشم، فأورثهما الرغبة في إثارة العافية، وهو ما نسميه النفاق، وما هو إلا مظهر للمحافظة على الذات، أو الدفاع عن النفس؛ لأنه إذا كان المرء غير آمن على نفسه أو ماله، أو غير واثق من العدل، أو غير مطمئن إلى احترام الحقوق، فما حيلته إلا أن يصانع ويداري ويماذق ليتحفظ بمصلحته، أو يجتنب الأذى ويتقي السوء ويأمن الظلم والعسف؟

والمرء ينزع إلى الشقاق إذا لم يرضَ عن حاله، ومن ذا الذي يرى العدل قائماً والحرية مكفولة، والحقوق مرعية، وفرص السعي والنجاح في كل ميدان متاحة

لذوي المواهب، ثم يذهب يتسخط ويثير الشقاق ويجنح إلى الفتنة؟ لا أحد سوى الذين مُنوا بالعجز أو أسرفوا في الطمع، واشتطوا في طلب ما ليس لهم بحق، وهؤلاء لا يعتدُّ بهم ولا تأتير لهم.

ومهما يبلغ من عدل المستبد المستأثر بالحكم، فإن الأمر فيما يمس الشعب يكون أشبه بالمقامرة، فهو موكول إلى الحظ لا إلى القانون والحق، ومن هنا قلت لصديقي العراقي: إن الحجاج وأمثاله من الطغاة البغاة هم الذين يحوجون الأمم إلى أخلاق النفاق، ويضطرونها أن تنزع إلى الشقاق، ومن هنا أيضًا كانت هذه أخلاق ضرورة، تزول بزوال دواعيها وبواعثها، أي متى حل العدل محل الظلم، وقامت الشورى مقام الاستبداد، واطمأن الناس إلى حرياتهم العامة والخاصة، ووثقوا من أن حقوقهم في أمان من العدوان.

فإذا كان في العراق أو مصر نفاق - فإنهما سيان - فهذه علتها، أو شقاق فداعيه ما أسلفنا عليه القول، وقد صار العراق - كمصر - دولة حرة مستقرة، ذات دستور وبرنامج، ولكن الأمر لم يستقم بعد، لا هنا ولا هناك، وهو يحتاج إلى زمن غير قصير حتى تستوفي الأمة حظها من التعليم الصالح والتربية الاستقلالية القويمة وتتدرب على استعمال حقوقها، وتدرك قيمة هذه الحقوق فتحرص عليها، وتضمن بها أن يعبث بها عابث، أو يغالطها في حقيقتها مغالط، وحينئذٍ يحل الأمن محل الخوف، والعلم محل الجهل، فتصح الثقة والاطمئنان مدار السلوك.

ويقول صديقي العراقي: إن العراق قَلِقَ متحفز، فهو لذلك لا يستقر، والظواهر تؤيده، فإن الوزارات تقوم وتسقط بسرعة، ولا تكاد تبقى في الحكم زمانًا يكفي للقيام بأعمال الإصلاح، وهذا أيضًا حال مصر، وكل ما بينهما من فرق أن الجيش

في العراق تدخل غير مرة لإسقاط وزارة وإقامة وزارة. وقد سمعت غير واحد من إخواني العراقيين يقول: إن الشعب لا يطيق أن يطول عمر وزارة، فإذا بقيت سنة بدأ يتململ ويضجر، ويظهر السخط ويطلب تغيير الحال.

ولست أستغرب هذا أو أرى فيه شذوذاً أو خروجاً عن حد الصحة في الأمة فإن تعليقه سهل، ذلك أن الأمة إذا فازت بالاستقلال بعد معاناة عهد طويل من حكم لم يكن لها فيه رأي أو قول أو شأن، تشد رغبتها في تعويض ما فاتها وإدراك من سبقها، وعلى قدر تنبهاها ويقظتها يكون إلحاح هذه الرغبة وقوتها، فنراها بعد أن تستيقظ نفوسها تأسف على الماضي الذي ضاع وهي في غفلة من جراء الجهل والاستبداد بها، وتحس بحاجة إلى الإسراع في السير لتصل إلى حيث تتطلع، وتبلغ ما تعتقد أنها حديرة به من منازل الكرامة والعزة والرقى، وتقيس حالها إلى حال غيرها، وتوازن بين مرتبتها والمراتب التي ارتقى إليها سواها، فتلفي نفسها متخلفة عن ركب الأمم، فتستعجل، وتستبطن كل عامل مصلح، مهما بلغ من اجتهاده لها وابتغائه خيرها، لأن كل ما ينجزه من الإصلاح يبدو لها قليلاً يسيراً بالقياس إلى ما تنشده، فتتململ وتبترم، ولا تحس أنها راضية، لأن العمل دون الأمل، ولأنها تنظر بعيدونها فتري الأمم الأخرى تغدُ السير بل تطير، على حين تحس هي أنها تمشي بخطوات السلحفاة، وقد لا يكون هناك بطاء حقيقي، ولكنها تشعر بالبطء وتستثقله، لأن آمالها كبار، ونظرتها إلى الهدف البعيد والغاية القصوى، ولأنها تنسى وهي تتطلع إلى ما تنشده، قلة الوسائل عندها، وتوفرها عند سواها من الأمم التي سبقتها في الميدان، وتغضي عن كونها حديثة عهد بتولي أمورها، وأن الأمم الأخرى تتولى جميع أمورها بنفسها منذ قرون.

وهذه هي الحال في العراق ومصر على السواء، ومن هنا كان السخط الذي لا ينفك يظهر، والتذمر من بطء السير.

على أن هناك علة أخرى مشتركة، بين مصر والعراق، ذلك أن الأمر في البلدين إلى الأمتين في الظاهر، أذ ' الحقيقة فهي أن الأجنبي لا يزال يملك من الأمر كثيرًا ولأصابه الظاهرة أو الخفية أثر فيما يكون، فالأمر ليس كله إلى الأمة، وإن كان هذا هو المفروض، ومهما أخفى الأجنبي أصابعه وسترها فإن الأمة لا يخفى عليها أن الأصابع تلعب من وراء الستار، إذا كانت لا تلعب جهرة، ومن الغفلة الشديدة أن يتوهم متوهم - أجنبيًا كان أو مواطنًا - أن الأمة لا تفتن إلى لعب الأصابع الأجنبية.

ثم إننا لطول عهدنا بالاستبداد - في مصر والعراق على السواء - أصبحنا نميل إلى سوء الظن، وهذا بعض ما يجنيه الاستبداد على الأمم، فنحن لا نصدق أن الأجنبي قد كُفَّت يده عن العبث، وأنه نفضها من شئوننا كل النفض، وكل عمل نراه نروح نبحت عن أثر الأجنبي فيه، لأننا فقدنا الثقة من زمان طويل بحكامنا أي من تلك الأيام التي كانوا يتولون فيها أمورنا على الرغم منا، وقد نكون مخطئين في قياس الحاضر على الماضي، بل نحن مخطئون في الأكثر والأغلب، ولكن الإنسان، وهو لا يستطيع أن يتخلص بسهولة مما ورثه في الماضي الطويل، فله العذر إذا أساء الظن، وليس مما يعين على إحسان الظن أن يكون للأجنبي قوة حربية في بلادنا بالغة ما بلغت من الضالة أو قلة الكفاية، ومهما قيل في صفة هذه القوة وأنه ليست لها صيغة الاحتلال، فهي قوة أجنبية، ووجودها معناه ومؤداه التلويح

بها للضغط، فلا اطمئنان مع وجودها إلى حرية التصرف، وإمكان إهمالها كأنها ليست هناك.

والعراق ومصر على حق في سوء ظنهما بما يؤدي إليه وجود القوة الأجنبية في البلدين، واعتقادهما أنهما من عوائق الرقي، فهي من بواعث الضجر والسخط وعدم الاستقرار.

وفي العراق ما ليس في مصر مثله، مثال ذلك: أنه قريب من الاتحاد السوفيتي وأن فيه جماعات غير عربية لا يؤمن أن تستخدمها الدول المجاورة أو المتصلة به للتآمر على كيانه، فهولندا في حيرة غير هيئة: يكره أن يكون لبريطانيا مركز في بلاده، مهما بلغ من هوان شأنه وقله خطرته، ولكنه من ناحية أخرى يخشى غير بريطانيا، ويحب أن يطمئن، فيلغي نفسه محتاجاً إلى عون بريطانيا، ويرى الدسائس الأجنبية تحاك، ولو كان قد بلغ من القوة والأس ما يتطلع إليه لاطمأن إلى قدرته على القضاء عليها بمفرده، دون أن يحتاج إلى معين. ثم إن تعداده قليل وهو على قلة عدده لا يزال في بداية النهضة، فماذا يصنع؟ أيعتمد على بريطانيا؟ إنه لا ثقة له في قرارة نفسه ببريطانيا، وإن كانت ظروفه تحوجه إلى صداقتها، وقلّة الثقة مرجعها إلى أن بريطانيا تنتهز الفرص لاستعادة نفوذها القديم بل سيطرتها السابقة، وإذا لم يحرص على صداقة بريطانيا فكيف يأمن جانب الطامعين فيه وفي موارده الطبيعية وخيراته، وفي مركزه الاستراتيجي؟ وهؤلاء الجيران ماذا تراهم يضررون له؟ وهل يسعه أن يكافح روسيا وبريطانيا في آن واحد؟ إن هذه حيرة مزعجة ولا شك، لأنه يريد - بحقٍ - أن يستقل بأموره استقلالاً تاماً، ولكن بريطانيا - في بلاده - وروسيا على مقربة منه (ودعُ تركيا وإيران) لا تدعان له

سبيلاً إلى الاطمئنان، أفلا يكون معذوراً إذا سخط وصب نغمته على من يستطيع أن يصبها عليه؟ إن عذره واضح!

ولكن في العراقيين رجولة تبعث على الاحترام بل الإجلال، وستنفعهم هذه الرجولة في الخروج من المَرَق السياسية التي زجت ظروفهم بها فيها، وأنا على يقين جازم من هذا؛ لأنني عظيم الثقة بهذه الرجولة التي تبينتها فيهم، والتي جاءت الحوادث بالدليل الناهض عليها، وإنها لحسبهم، ومتى كانت الرجولة وافية، فإن لك أن تثق بأن صاحبها لن تنقصه صفة من الصفات الجليلة في مواقف الشدة والحرج.

المصريون وروح الفن

نشر في جريدة : البلاغ - بتاريخ ديسمبر ١٩٤٣

كتب إليّ بعضهم يستغرب قولي أو ينكره، إن المصريين مطبوعون على روح الفن، ولا يرى فيما سقته من الشواهد في محاضرتي في موضوع الرأي العام ما يكفي للدلالة على ما ذهبت إليه، فلا بأس من كلمة في هذا تجلو الغامض. ولا شك أن في بلادنا جهالة فاشية، وأمّية منتشرة، غير أن هذا لا قيمة له ولا وزن، فإن كلامنا ليس على الفنون بل على الروح التي تبدو مظاهرها في حياة الأمة، وفي أساليب الكلام، وفي العادات وفي العفو والعمد من العمل والسلوك، وما كان الجهل ليمنع أن تظهر الروح العامة وإن كان قادراً على طمسها إلى حد ما وعلى الحيلولة دون الاتساع ورحابة الأفق، ودون الانتفاع بالاستعداد المضر والمواهب الكامنة.

ويجب التفرقة بين الأثر الفني في صورة أو قصيدة أو مثال أو غير ذلك، وبين الروح الفنية، فقد أكون جاهلاً أعرف الكتابة ولا أقدر على القراءة فلا يمنع هذا أن تكون لي روح الشاعر، وأن تظهر شاعريتي الخرساء في أسلوب معيشتي وما أنا مغرى به وفيما أحب وأكره، وما أستظرف وأستثقل، وفي ثيابي وألوانها، وفيما آلفه وأنفر منه، وفي جسدي وهزليي، وفي كلامي وإشاراتي ونظراتي واتجاهات نفسي وفي صناعتي والروح التي أقبل بها عليها وما أتوخاه فيها. وقد أكون أكثر الناس علماً، وأعظمهم إحاطة بالمعارف وأوسعهم تحصيلاً بكل ما يدخل في الوسع اكتسابه، ولا أكون مع هذا خيراً من كتاب ضخّم غليظ يطيب منظره وهو على رّفه وينفع إذا فتحه قارئ، ولكنه فيما عدا هذا جامد خامد لا حياة فيه ولا حس

ولا إدراك، ولا نوق ولا خيال، ذلك أن العلم شيء والروح الفنية شيء آخر. والروح يفطر عليها المرء، وقد يقويها التعليم ويقومها ولكنه لا يخلقها، ويجيء بعد ذلك الأداء، وأعني به العبارة عما في النفس بالوسائط الصالحة، وهو مَلَكَة واكتساب في أن معاً؛ لأن في كل فر وكل لون من ألوان الأدب مقداراً من التقليد لا سبيل إلاً إليه، لأنه بعض ما يُورث ويجري به عرف الجماعة.

ونحن مثلاً لا نزال وسنظل على الأرجح، ننظم الشعر من البحور التي نظم منها أقدم شعراء العرب، وقد نزيد عليها بحوراً جديدة، ولكن الإضافة لا تمحو القديم، والألفاظ والقوالب التي نستعملها هي التي استعملها من لم نعرف ولم نسمع بهم ممن عاشوا في أزمان موعلة في القدم، والمجازات التي نتخذها في كلامنا وكتابتنا قديمة عتيقة. وأكثرنا لا يعرف أصلها ولكننا نفهم المراد منها حين نقرأها أو نسمعها، وهكذا في كل شيء آخر. ولو أن إنساناً منا استطاع أن يحصي موروثه وجديده، لهاله أن حياته كلها تكاد تكون من القديم وأن الجديد فيها ضئيل، وأنه على الجملة يمكن أن يعد نسخة معادة ممن رحلوا عن الدنيا.

والعلم وحده لا يكفي في فن وأدب، وقلما يعنى إذا لم يوازره الذوق والموهبة والذوق بمجرد لا يكفي ولا غنى عن التحصيل الذي يوسع الدائرة ويُعين على الضبط والإحكام.

وفي مصر عشرات من الشعراء لا نسمع بهم، وإنما كانوا مجهولين لأنهم لا يقرءون ولا يكتبون ولا يعرفون الصحف والمطابع، ولو أنشدتهم شعراً عربياً لما فهموا على الأرجح، وهم مع ذلك يقولون شعراً موزوناً ومقفى أيضاً، في الحقول وفي سهراتهم في الليالي القمرية، وكلما تحركت نفوسهم وجاشت صدورهم ببواعث

الشعر من فرح وحرز وألم، وحب وكره، وحيرة واضطراب إلى آخر ذلك، وهم ينظمون هذا الشعر بلغتهم العامية ولهجاتهم المحلية، كما كان البدوي في جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده أيضًا ينظمون الشعر باللغة العربية التي كانت لغة الكلام، ويغنون ويضربون على الدف وينفخون في المزمار، وما سمعوا قطُّ بعينه الحامولي أو سيد درويش. وقد سمعت مقطوعات شتى من قصيدة طويلة، نظمها رجل من أقاصي الصعيد هجرته وزوجته وفرت مع مَنْ لا يعرف، فذهب يبحث عنها في كل مكان حتى انتهى إلى بورسعيد واهتدى إليها هناك، فعاد أدراجه وتركها مع من وجدها معه. وفي هذه القصيدة يصف رحلته وما لقي فيها ويسرد ذكرياته، والقليل الذي روي لي منها يسمح لي أن أقول إنني أفضلها- إذا كانت كلها من طبقة ما سمعت -على هومر، وكم من إنسان خرج من حنته كما خرج آدم، وكم من شاعر دفن شعره لأنه لم يجد له راوية.

وقد تلقى المتنبي اللغة من العارفين بها في البادية والمدن المتحضرة، فصار من أعلم الناس بها، وكان هذا بعض ما يتعجبون له منه، ولكن المتنبي شاعر بسليقته؛ لا لأنه واسع العلم باللغة، ولو لم يكن له كل هذا العلم لبقى شاعرًا، ولو كان لم يُرزق السليقة ولم يُوهب الملكة والروح لما عدا أن يكون واحدًا من الرواة الكثيرين، أو من يحفظون من اللغة فوق ما يحفظ الأوساط العاديون، لأن العبرة ليست بكثرة المحفوظ ولا بسعة العلم بل بالملكة، ثم بالقدرة على الأداء والدوق فيه، فالجهل لا يمنع أن تظهر الروح الفنية، والعلم يؤازر ويسعف ولكنه لا يخلق.

وقد سقت في محاضرتي مظهرين لروح الفن في مصر: الفكاهاة والطرب للغناء فلا أعود إليهما، ولكنني أحب أن أنبه إلى ما يبدو من سواد المصريين عند السماع

فإن الإحساسات التي يثيرها الصوت تطلغي عليهم وتستغرقهم وتندسيهم الوقار والاحتشام المؤلفين، فنرى الرجل الرزين يقوم ويقعد، ويصيح ويزعق بأصوات الاستحسان، ويلح في طلب الإعادة وينشد الري. كأن هذا آخر ما كُتِب له أن يسمع، ولا تراه يقنع بما يلمس ولا ينفذ من نفسه إلى الأعماق.

وهذا من حب الحياة، وكل إنسان في كل أرض يحب الحياة ويتعلق بها ويحرص عليها، ولكن المصريين من أشد الأمم حباً لها ورغبة في تخليدها، ومن فرط حبهم للحياة عنوا بالموت كما لم تُعنَ به أمة أخرى، ومن فرط حبهم للحياة أحبوا السرور واللذة وأغرقوا في طلب المتعة، وأسرفوا في التماس الشعور بلذة الوجود؛ فلسفتهم محورها هذا، وطبيعتهم راجعة إلى هذا، وخصائصهم في السرور والحزن وفي الشجاعة والجبن، وفي الصبر الذي يكاد يلتبس بالبلادة، وفي الطاعة والاستسلام، وفي التمرد والعصيان، وفي كل حالة من حالاتهم، ترتد إلى فرط حبهم للحياة.

وقد أشرت في محاضرتي إلى إظهار المصريين للارتجال في الغناء، وتفضيل المغني أو العازف القادر على الابتداء والابتكار عفو الساعة والبدئية، وهو يعرف ذلك ويروض نفسه عليه، ولا يستنكره أو يتململ منه، وقد تكون هذه سذاجة ولكنها من روح الحرية التي هي أعلى ما تعزبه روح الفن، ولا أحتاج أن أقول إن الفنون تموت إذا فقدت الحرية، وصحيح أن التزام لحن معين لا ينفى أن الفنان كان حراً في صوته وابتكاره، ولهذا قلت إن سرور الشعب بأن يرى المغني يتصرف ويذهب في الصوت على هواه من السذاجة، ولكنها سذاجة ترجع إلى حب الحرية، التي لا يقوم فن بغيرها.

ومن شاء فليسأل أي واحد من معارفه أو أقربائه عن « أول » ما يخطر له أن يصنع إذا رزق مألًا وفيرًا، فإنه خليق أن يسمع منه - إذا أثار الصدق ولم يستح. وقبل أن يشاور نفسه - أنه يشتهي أن يبني قصرًا كبيرًا، وأن يقتني السيارات والجياد وأن يؤثث البيت - أو القصر كما يحب أن يسميه - بأفخر الرياش وآنق الأثاث إلى آخر ذلك، أما التفكير في تنمير المال فيجيء بعد ذلك، وهل خرّب بيوت الموسرين منا إلا جريهم مع أول الخاطر الذي تمليه روح الفن المصرية، والأ سحر الخيال الذي يعمق ويقوّي ويضاعف الشعور بالحياة والإحساس بوقعتها؟

وحب الفخفة والعظمة راجع إلى خصائص مصر الفنية، وآثار مصر القديمة تدل على أن المصريين أشدّ ولعًا بمظاهر الجلال منهم بمظاهر الجمال، ولهذا يؤثرون الكبر والاتساع والضخامة والروعة، أي كل ما يكون عظيم الواقع، ويفضلون ذلك على الأناقة والظرف والحلاوة، والقصر الضخم عندهم خير من البيت الصغير الأنيق الجميل، والسعة والرحابة والعلو والضخامة أثر وأولى بالإعجاب، ويدعو الرجل إلى بيته ثلاثة أو أربعة. فيصنع لهم طعامًا يكفي عشرين، ويحتفل بعرس فيحسب حساب من لم يدعوا ومن لا يمكن أن يدخلوا في حساب، ويكون فقيرًا لا يعرفه أحد، ويموت له واحد، فيقيم سرادقًا يزحم الشارع كله - ويتعجب للأجانب الذين يصنعون الطعام على قدر الحاجة، ويضحك منهم - إلى آخر هذه المظاهر التي تدل على أن المصريين يتعلقون بمعاني الجلال أكثر من تعلقهم بمعاني الجمال.

ويظهر آخر لروح الفن: ترى في الطريق رجلين يتشاقمان، ويوشك أن يتضاربا فتقف لتري ما يكون منهما، فتسمع أحدهما يقول للثاني إنه سيأكله بلحمه

وعظمه، فيرد عليه الثاني بأنه سيفرمه فرمًا وينثر لحمه المفتت للكلاب، فيقول الأول بل هو سيتناوله ويضرب به الأرض ويبطله، فيقول الثاني إنه سيقتلع له لسانه من جذوره حتى لا يثرثر بعد ذلك، وسيفقأ له عينه ليعمى. وسيفعل كيت وكيت بيديه وأذنيه، فيعود الأول إلى وصف ما ينوبه من ضروب التمثيل بخصمه. ويظلان هكذا حتى يدخل بينهما المصلحون وتمضي كل جماعة بواحد وينفض السامر ويصفو الجو، وقد سمعت من يعيب المصريين بهذا وينعتهم بأنهم أمة قوَالين لِأَفْعَالين، ولست أرى رأي هذا العائب؛ فإن الأمر مرجعه إلى الروح الفنية، ويخيل إليّ أن المصري يجد لذة مغرية بالاسترسال في طلب تذوقها حين يصور لنفسه وللناس ضروب الأذى التي ينوي أن ينزلها بخصمه، ويظهر أن لذة التصوير والوصف تفوق عنده كل ما عسى أن يفيده من الرضا والارتياح إذا هو أوقع بخصمه فعلاً، وكأنني به يقيس، فيما بينه وبين نفسه حقيقة الأذى الذي يستطيع أن يصيب به خصمه، إلى ما يتخيل ويشتهي من ذلك ويتمنى لوراه في الحقيقة والواقع، فيجد أن الحقيقة دون الخيال، ويسحره الخيال ويفتنه بما يعرض عليه من الصور فيذهب معه، وهذا عندي هو التأويل الصحيح لهذه الظاهرة. وقد أشرت في محاضرتي إلى روح الفكاهة عند المصريين، فلا أعود إلى ذلك ولكني أقول إن قوام كل أدب وكل فن - إذا أثرنا البساطة في التعبير وزهدنا في الحذقة الفارغة والفلسفة التي تعقد الأمور - أن للأدب والفنون دعامتين كبيرتين هما الملاحظة والخيال، وأظن أن فكاهة المصريين وحدها كافية للدلالة على عظم نصيبهم من هاتين، فما من سبيل إلى فكاهة بغير ملاحظة دقيقة وخيال يقيس ما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون.

وكثيرون منا أدركوا عهد الشاعر ذي الربابة على دكته العالية وسجاده أو فروته، ولهذا نظير في العصور القديمة عند الأمم الأخرى، ولكن الذي ليس له نظير في غير أمتنا- فيما أعتقد - أن الشاعر لا يقص الحكاية كلها، بل يقتصر على بعضها ويكف عن الرواية قبل أن يبلغ النقطة الحاسمة؛ ليترك السامعين متلهفين على البقية بعد أن حرك نفوسهم لها، وقد تكون هذه تجارة ليعود الناس إليه في الليلة التالية.

ولكن التجارة لا تروج إلا حيث تكون لها سوق، ولولا أن طبعة الناس تسمح بهذا السلوك لما استطاع الشاعر التاجر أن يستغل الرغبة في الاطلاع والارتياح. والأمر الثاني أن السامعين يندمجون مع أبطال القصة ويشاركونهم في شعورهم وينقسمون، فالبعض ينحاز إلى واحد من أبطال القصة، والبعض يؤيد خصمه. وقد كان يبلغ من قوة الاندماج بالخيال مع الأبطال أن تقع المشاجرات الدموية بين السامعين المختلفين، بل أن تُطلق النساء أيضاً من حراء ذلك، ولا يمكن أن يقع مثل هذا إلا في أمة مطبوعة على روح الفن مع البساطة والسذاجة.

***وحسى هذه الأمثلة التي سهّل القياس عليها.

ومن سوء الحظ أن المدنية الغربية تطغى على مصر طغياناً شديداً يوشك أن يطمس الخصائص المصرية وينكرها، ويجعلنا صورة طبق الأصل من أوروبا، ولا خير في هذا، وإنما الخير أن نحفظ بخصائص روحنا من غير أن نهمل ما يمكن اكتسابه من مدنية الغرب، ولست أعني أنني أريد أن يعود عهد الشاعر ذي الربابة، وعهد الأفراح الصاخبة، وإنما أؤثر أن تبقى روح مصر مصرية، وأن تحافظ على خصائصها، وأن لا نخجل من مظاهرها في حياتنا وسيرتنا وعاداتنا، وأظن أن هذا هو الذي سيكون بعد أن نشبع من التقليد ونجتاز فترته.

النكتة المصرية

نشر في مجلة ، الهلال - بتاريخ يوليو ١٩٤٧

النكتة مظهر فطنة، والأغلب أن يكون مدارها على ظاهر السلوك، ويندر أن يستطيع صاحبها التحليق فوق المظاهر، أو الغوص إلى الأعوار البعيدة، وهي تُضحكنا بما فيها من مقابلة بين أمرين أو حالين أو سلوكين، مستورين، أو مستور وبادٍ، أو باديين. مثال ذلك ما عُرِيَ إلى صديقنا الأستاذ محمد خطاب بك من أنه قال لسيدة زعمت أن زوجها يهدى إليها في كل عيد بيلاذ لها مائه جنيه،

«إذن أنت مليونيرة!» وكثيراً ما تدور النكتة على تشابه الألفاظ في الجرس واختلاف في دلالاتها أو معانيها، ومثل هذا الضرب لا سبيل إلى نقله إلى لغة أخرى؛ لأنه يتعلق باللفظ لا بالمعنى أو الصورة، وفي النكتة معنى النقد، بالسخرية والتهكم وما نسميه «القفش». كان للمرحوم إمام العبد الشاعر الزجال صديقٌ يقضي النهار في النوم والليل في السهر، فقال إمام على سبيل «القفش» لصديقه وتصوير حاله المقلوب، إنه رسم صورته عصر يوم بالقلم الرصاص على «طاولة» في مقهى، فلما غابت الشمس نهضت الصورة واقفة!

أما الفكاهة فشيء مختلف جداً؛ لأنها تدور على المعاني والحقائق، وتغوص على الجوهر، ولا تتعلق بالصور العارضة، وأنا أخالف من يذهبون إلى أن هناك فكاهة لفظية وأخرى معنوية، وعندي أن ما يسمى فكاهة لفظية أولى به أن يدخل في باب النكتة، وأخالف أيضاً من يظن أن الفكاهة من شأنها أن تغري بالضحك أو على الأقل بالابتسام، وعندي أن الفكاهة قد تضحكك أو لا تضحكك، فليس هذا

بالذي له قيمة، وهو راجع إلى الأسلوب الذي يساق فيه المعنى. وقد تجيء الفكاهة صارمة الجد، بل أصرم من الجد نفسه، وسواء أحملتك أم لم تحملك على الضحك أو الابتسام، وأدخلت أو لم تُدخِل على نفسك السرور، فإنها لا بد أن تغريك بالتأمل والتفكير. والنظر والتدبير، وسأسوق مثلاً واحداً له نظائر كثيرة: قصيدة الشاعر الإنجليزي توماس هاردي اسمها على ما أذكر «فد الأرض»، وفيها يتخيل الشاعر أن وفداً من الكرة الأرضية صعد إلى السماء، واستأذن فدخل على «الرب»، وشكا إليه سوء حال الجنس الإنساني، وما يلاقي من الحروب والأوبئة والطواعين والظلم والقسوة إلى آخر ذلك، فأخذ الرب يتفكر ويحاول أن يتذكر، ويقول كمن يُحدِّث نفسه: الأرض؟ الجنس الإنساني؟ إنني أتذكر أنني قبل ملايين من السنين خلقت شيئاً كهذا في جملة ما خلقت من ملايين الكواكب والنجوم، فهل هذه الأرض لا تزال موجودة؟

وهنا ينبغي أن أقول: إن الشاعر مسيحي صحيح الإيمان بدينه، وليس بملحد كما قد يسيق إلى وهم القارئ، وقصيدته هذه تنتهي بما يشهد له بصحة العقيدة وعمق الإيمان، وهو لا يريد أن يقول إن الله - سبحانه - نسي الناس وكرتهم الأرضية، وإنما يريد أن يصور ضالّة هذه الكرة - التي يتوهم الأكثرون أنها مركز الدائرة وقطب الرحى في هذا الكون المهول الذي لا يُعرَف له أول أو آخر - وهوان شأن الإنسان المغرور المنتفخ الأوداج، وقد نبسره حين نقرأ قول الشاعر على لسان الرب فيما يتخيل، ألا تزال هذه الأرض موجودة؟ ولكن الابتسام يغيض حين تدرك المعنى المقصود، وتفتن إلى ما بطن به هذا المزح، فتروح تفكر في هذا الإنسان الضعيف المغتر، وهو أن شأنه شأن أرضه، وطموحه المضحك على الرغم من جلاله وتوهمه

أنه شيء له قيمة، وسعيه ودهءويه، وتعثره وتخليطه، وتوفيقه مرة وإخفاقه مرات وحيرته حيال الأقدار الراصدة له في حيث سلك إلى آخر هذا. ودأب توماس هاردي ووكدته، في شعره ورواياته، أن يضع الإنسان في كفة، والأقدار في كفة أخرى، والقدر غالب، ولكن هاردي لا يسخر من الإنسان، بل يعطف عليه ويرثي له، بغير كلام يُعرب به عن العطف والمرثية، لأن قلبه كبير، وأفقه واسع، على خلاف أناطول فرانس معاصره، فإنه مروعر.

ويُخيل إلي أن النكتة المصرية بنت عوامل ثلاثة على وجه الخصوص:

أولها: ما اشتهر به المصريون من أقدم العصور من الذكاء الفطري وحدة الفؤاد وحضور البديهة وسرعة الخاطر، وليس هذا مدحًا، وإنما هو تقرير حقيقة وقد يخفى هذا الذكاء من جراء الأمراض الوييلة التي تستنفد الحيوية وتترك من يعانها أشبه بالبله أو الأغبياء. ولكن هذه الأمراض على شدة فتكها بالأبدان وامتصاصها لحيويتها، لم تستطع أن تحجب فطنتهم الطبيعية فلا تزال ألسنتهم - على الرغم منها - تجري بالنكتة اللاذعة والسخرية المرّة.

وثانيها: ما هم مفتورون عليه من الجلد المدهش، والقدرة على التشدد والصبر والاحتمال، ومن أعون الأشياء على الجلد أن تستطيع أن تهون الأمر على نفسك بنكتة ساخرة، وأن تهون أمر من منه بلاؤك ومصابك بأن تركبه بالهزل، وأن ترسم له صورة تغري بالضحك منه، والاستخفاف به، وبذلك ندرك غرضين: تخفيف وقع ما تكابد، وتشرح صدرك، والضحك مدد قوي للنفس، ونجدة في ساعة المحنة، ومن وسعه أن يضحك وهو يتوجع، فقد وسعه أن يستل الإبرة الواخزة، وينزع السهم الواقع. والغرض الثاني أنك

تشعر بأنك أخذت تارك وشفيت نفسك، وانتقمت من ظالمك أو خصمك بتحقيره وتصغير شأنه وإضحاك الناس منه، بل هناك غرض ثالث تدركه بالنكتة، هو أن مَنْ تُطلقها عليه يكون قد أخفق؛ لأنك إذا استطعت أن تقابل عنقه وجوره أو لؤمه بضحكة ساخرة، فكيف يمكن أن يقال إنه قد نالك بمساءة؟ أو أن ما توهمه مساءة قد بلغ حيث يريد؟

وثالثها: أن المصري عاش في ظل حكم استبدادي غاشم آلفاً من السنين، والعسف يورث النفوس مرارة، ولا يبيت الناس منه إلا على حذر وتقية، وإذا كان المصريون لم يستطيعوا في هذه الأدهار الطويلة أن يغيروا الحال تغيراً يمحوا ما استقر في أعماق نفوسهم، فقد كان ملحوهم التحرز وإضمار سوء الظن وإطلاق اللسان، وألقوا أن يدعوا حكاهم وولاة أمورهم يفعلون ما يشاءون على أن يقولوا هم فيهم ما يشاءون، ولست أعرف أمة أخرى - وقد أكون مخطئاً - تبسط ألسنتها في رجالها ورؤسائها وحكامها كما يبسطها المصريون، أو تحرص على حرية «الاعتياب» مثل حرصهم، وأحسب أن «الحاج» براون لم يخطئ حين استخلص في كتاب «بونابرت في مصر» من تاريخ الجبرتي، أن من أسباب ثورة المصريين مرتين على الجيش الفرنسي الذي دخل مصر بقيادة نابليون، ما فرضته قيادة هذا الجيش على المصريين من قيود على حرية الكلام، أو على الأصح حرية «الاعتياب».

ولعل هذه العوامل التي ذكرتها هي التي جعلت المصري أميل - في الأغلب والأعم - إلى النكتة منه إلى الفكاهة بالمعنى الصحيح، وأقدر عليها، على أنني قد أكون مخطئاً في تصوري أو تصويري، ومَنْ ذا الذي لا يخطئ؟ ولكنني أظن أنني على صواب.

سيرة ذاتية

الاسم: محمود محمد محمود القلبي

عضو اتحاد الكتاب بالقاهرة - عضوية عاملة رقم ١٩٧٧

الهاتف: ٠٠٢٠٤٥٣٣٢٠٠٣٩

النقل: ٠٠٢٠١٠٦١٤١٤١٢٤١

البريد الإلكتروني: elkellenymahmoud@yahoo.com

الأعمال المنشورة:

- ١- إنهم يذهبون : قصص قصيرة دار الشعب بالقاهرة -١٩٨٢.
- ٢- الدجال والشيطان : رواية مركز معروف بالإسكندرية -١٩٨٥.
- ٣- إخوانون والكهنة : مسرحية الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة-١٩٩٥.
- ٤- محنة الإمام أحمد بن حنبل: مسرحية الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٩٧.
- ٥- مصرع الخراساني : مسرحية الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة ٢٠٠٢ .
- ٦- غائب لا يعود : مسرحية الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة .
- ٧- الفكر الإسلامي ومسجدات العصر: كتاب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة
. ٢٠٠٥
- ٨- عش حياتك سعيدا : كتاب مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار - ٢٠٠٥.
- ٩- النساء فذلن عروثهن : كتاب مكتبة العلم والإيمان بالمنصورة ٢٠٠٦.
- ١٠- العريرة - فى رحاب عمر بن الخطاب: كتاب دار العلم والإيمان بدسوق ٢٠٠٧.
- ١١- أمير الصحافة العربية : كتاب مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار ٢٠٠٩.
- ١٢- شخصية موسى النبي : كتاب مكتبة بستان المعرفة ٢٠١١ .
- ١٣- الإسكندرية عاقيد العشق والغضب، رواية مكتبة بستان المعرفة ٢٠١١.
- ١٤- الثرة فى وجدان المصريين: كتاب مكتبة بستان المعرفة ٢٠١٢.

١٥- الباحثون عن الله، كتاب دار العلم والإيمان بدسوق ٢٠١٣.

١٦- الخروج من الجدل، رواية مكتبة بستان المعرفة ٢٠١٣.

١٧- بلد رآكها عفت : مسرحية الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠١٠.

١٨- شخصية المسيح، كتاب مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار ٢٠١٤.

١٩- شخصية النبي محمد : كتاب دار العلم والإيمان بدسوق ٢٠١٤.

الجوائز:

١- جائزة التأليف المسرحي من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية محنة الإمام أحمد .

٢- جائزة التأليف المسرحي من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية إحناتون والكهنة .

٣- جائزة التأليف المسرحي من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية مصرع الخراساني .

٤- جائزة الدراسات النقدية من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن دراسة بعنوان (الذاتية والقيم الوجودية في أدب إبراهيم عبد القادر المازني).

٥- جائزة الدراسات النقدية من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن دراسة بعنوان (قيم ومعايير في أدب يوسف إدريس).

٦- جائزة المقالة النقدية من المجلس الأعلى للثقافة عن دراسة على قصة (الطريق) لنجيب محفوظ.

٧- جائزة من نادى أبها بالملكة العربية السعودية عن مسرحية محنة الإمام أحمد بن حنبل ١٤١٧هـ.

٨- جائزة من نادى القصة بالقاهرة عن رواية بعنوان (قوس قزح) ٢٠٠١.